الباب الأول

البيان عن إعجاز القرآن

إن سأل سائل. فقال: ما الدليل على أن القرآن[1] معجز ؟

قيل له: الدليل على ذلك: أن النبى – صلى الله عليه – أدعى "النبوة، وآتى بالقرآن، وأدعى أنه معجز قد أنباه – عز وجل – به وجعله دلالة على صحة دعواه، وبرهانا على صدقه، وتحدى به العرب قاطبة، وقرعهم بالمعجزة عن الإتيان بمثله، بل بسورة مثله، وفيهم الخطباء، والشعراء والبلغاء، وهم الغاية فى البيان، وأولوا المعرفة بمواقع الكلام وأجناسه وأساليبه من المنثور والمنظوم، ولهم العادة المشهورة فى التفاخر بالبلاغة والفصاحة، والمعرفة بطرق المعارضات، ومزايا المخاطبات مع ما كانوا عليه من الحمية والأنفة والعصبية، ومع شدة حرصهم على تكذيبه، وتوهين أمره، وإبطال دعواه، حتى بذلوا لذلك ما عز وهان من النفس فما دونها. وهو – صلى الله عليه – يتحداهم، ويقرعهم بالعجز، ويدعى أنه حجته وبينته، ويذم مع ذلك أديانهم، ويسب آلهتهم التى اتخذوها من دون الله عز وجل، ويدعوهم إلى طاعته، والتصرف على أمره ونهيه، واستمر على ذلك زمان بعد زمان فلم يعارضوه، وعدلوا إلى الحرب التى هى أشق فقاتلوا حتى قتلوا، وقتلوا، فدل ذلك: على أن عدولهم عن معارضة القرآن لم يكن إلا لتعذره عليهم، إذ لا يجوز على العقلاء، إذا حاولوا أمرا أن يعدلوا لمحاولته من الأسهل إلى الأعضل، ومن الأيسر إلى الأعسر، إذا كانوا متمكنين منهما – وإذا ثبت تعذرها عليهم ثبت أنها على غيرهم أشد تعذرا.

---

١ – القرآن فى اللغة: مصدر على وزن فعلان: كغفران وحسبان، وفعله: قرأ. والمصدر: قراءة وقرآناً. قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦-١٧]" أى: قراءته. والقرآن فى الاصطلاح: هو كلام الله المنزل على سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – والمكتوب بين دفتى المصحف، أوله سورة الحمد، وآخره سورة الناس، والمعجز بلفظه ومعانيه، والمتعبد بتلاوته، والمنقول بالتواتر (لسان العرب، مادة: قرأ).

والمعجز[1] هو الآمر الذى يتعذر مثله على جميع البشر، فثبت أنه معجز على ما قلناه، وهذه الدلالة مبنية على أن التحدى بالقرآن قد وقع، وأن المعارضة لم تقع، وأن السبب الذى من أجله لم تقع هو التعذر، وأن التعذر متى صح صح كونه معجزا.

ونحن نبين ذلك فصلا فصلا، إن شاء الله سبحانه.

---

١ - المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدى مع عدم القدرة على المعارضة، فكل أمر خارق للعادة يجريه الله على يد النبى تصديقاً لنبوته وتحدياً للمنكرين يسمى معجزة ؛ لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها (المعجم الوسيط: ٨٥٨).

الفصل الأول
الكلام فى أن التحدى قد وقع

إن قيل: أنكم بنيتم دلالتكم هذه على أن النبى – صلى الله عليه – تحدى العرب بالقرآن، فدلوا عليه، وبينوه، ليستتب غرضكم، ويتم ما ذكرتموه.

قيل له: قد ذهب كثير من العلماء، ومجيدو العلم، بأنه صلى الله عليه تحدى به ضرورة: كالعلم بأنه ادعى النبوة، وآتى بالقرآن، وإن كان العلم بهذين أجل من العلم بالتحدى.

وقالوا: ولا يمتنع فى العلمين، وإن كانا ضروريين أن يكون أحدهما أجلى، والآخر دونه فى الجلاء، ونحن لا نذكر هذه الطريقة، إلا أنا لا نقتصر عليها، ونوضح الأمر فيه إيضاحا نرجو أن تزول معه الشبهة.

وأن الخبر إذا كان فى الأصل قويا، وموجبا للعلم لا يمتنع مع تطاول المدة، وتراخى الزمان أن يعرض فيه بعض الضعف، سيما عند من يقل نظره فى الأخبار، وسماعه لها، وقد كان الأمر فى التحدى ظاهرا فى الأعصار السالفة، حتى لم يبلغنا عن مخالف الإسلام من ملحد أو متهود أو متنصر إنكاره، حتى حدث بالآخرة قول بلغنا عن بعض الملحدة والمتهودة. وهو أنهم قالوا: لم يحصل لنا العلم بأن النبى – صلى الله عليه – تحدى به، ولظهور الأمر فيه حقق العلماء القول فيه.

فهذا الجاحظ[1] مع بسطه الكلام فى كتاب (الفرق بين النبى والمتنبئ) حقق

١ – أبو عثمان عمرو بن بحر الملقب بالجاحظ لجحوظ عينيه. موسوعى وأديب ومعتزلى. ولد بالبصرة عام ٧٨٠م وتوفى فيها عام ٨٦٨م. وقد أحاط الجاحظ إحاطة جيدة بعلوم وآداب عصره، واعتبر من الكتاب الواقعيين والمنهجيين ذوى الفكر الحر، والملاحظة الدقيقة والمعالجة الطريفة.

القول فى التحدى لأنه رأى أن يتعذر أن ينكره منكر. وهذا ابن الراوندى[1] لما صنف كتابه الموسوم بـ (العزيز) واجتهد فيه وقعد، وأورد الغث والثمين فى الطعن على نبوة نبينا محمد – صلى الله عليه – وأنكر كثيرا من روايات المسلمين، لم ينكر التحدى وإنما تكلم فيما تكلم مع تسليمه، ولم ينكر ذلك إلا لوضوح الأمر فيه، وأنه استحيا لنفسه، وأن تبلغ صفاقة وجهه إلى إنكاره، ولهذا قال فى الكتاب المسمى بـ (الزمرد): "وقد أطنب محمد – يعنى النبى صلى الله عليه وعلى آله – فى الاحتجاج لنفسه بالقرآن، وبعجز الخلق عنه، ولم يقل ذلك إلا لشهرة الآمر فيه وبلوغه فى الطعن".

ونعود إلى ما وعدنا به من الزيادة وإيضاح ذلك فنقول: قد ثبت أن النبى – صلى الله عليه – لما أتى بالقرآن كان يقرأ على المسلم والكافر ولا يكتم أحدا ممن قرب منه، أو بعد عنه. وفى القرآن تحد كثير ظاهر، ففى ستة مواضع منه قد تحدى حتى لم يبق للشبهة فيه موضع، وفى مواضع أخرى نبه على أنه يتحداهم ودل عليه، وإن لم يكن لفظ التحدى ظاهرا فى تلك الآيات، وهذا كثير يطول ذكره، وإحصاؤه.

فأما المواضع الستة:

فأحدها: فى السورة التى يذكر فيها البقرة، وهو قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[2].

---

١ – هو أبو الحسن أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندى، نسبة إلى قرية راوند الواقعة بين أصفهان و كاشان فى فارس، ولد عام ٢١٠ هـ، وتوفى فى الأربعين من عمره شهدت حياته تحولات مذهبية وفكرية كبيرة فقد كان فى بداياته الفقهية واحد من أعلام المعتزلة فى القرن الثالث الهجرى ولكنه تحول عنهم وانتقدهم فى كتابه "فضيحة المعتزلة" ردا على كتاب الجاحظ "فضيلة المعتزلة" فتحول إلى المذهب الشيعى وله كتاب "الإمامة" من آثار تشيعه القصير ولكن لقائه بأبو عيسى الوراق الملحد قد أخرجه من التشيع والإسلام وتحول بعده ابن الراوندى إلى أحد أهم الملحدين والزنادقة فى التاريخ الإسلامى.

٢ – البقرة: ٢٣-٢٤

فانظروا رحمكم الله: هل يجوز أن يكون فى التحدى والتقريع قول أشفى من هذا، وأوضح منه، وأدعى لأعدائه إلى الاهتزاز للإتيان بمثله لولا تعذره بها لأنه تعالى قال: ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ وهذا كاف فى التحدى، ثم قال: ﴿ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فى إنكاركم أنه من عند الله، وهذا أيضاً تحد ثان، ثم قال: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا ﴾ تحد رابع مع أنه خبر عن المستقبل، ومثله لا يجوز أن يقع من العاقل إذ لا يأمن أن يفعلوا ذلك فيظهر كذبه، فدل ذلك على أنه كان من عند علام الغيوب.

والموضع الثانى: فى السورة التى يذكر فيها يونس – صلى الله عليه – وهو قوله عز وجل: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1].

فإن قوله: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ تحد بهذا وأنه لا يأتى به أحد إلا من عند الله، وفيه أيضا مع أنه تحد: خبر، لا يقع مثله إلا من عند علام الغيوب، وقوله: ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ تحد ثان ظاهر، لا مرية فيه، وكذلك قوله: ﴿ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ تحد ثالث.

والثالث: فى السورة التى يذكر فيها هودا – صلى الله عليه – وهو قوله عز وجل: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[2]

فكان قوله عز وجل: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ تحديا ظاهرا، وتقريعا بالغا، أنه عز وجل فسح لهم فى المعارضة، وان كانت الأقاصيص التى يوردونها قد اقتربت لأنهم كانوا يحتجون عليه – صلى الله عليه – بأنه كان يعرف من

---

١ - يونس: ٣٧-٣٨

٢ - هود: ١٣-١٤

أخبار الأمم وأيامها وأقاصيصها مالا يعرفون، فأدحض الله تعالى حجتهم، وكذب قولهم، وفضحهم بقوله تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ ودل ذلك: على أن الإعجاز تعلق بنظمه، وان كان أيضا متعلقا بمعانيه، وقوله ﴿ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ تحد ثان ؛ لأنه إخبار عن أن أحدا من دون الله لا يأتى بمثله. قال: ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ ﴾ وكان هذا تحديا ثالثا، لأن جعل حجته فى أنه أنزل بعلم الله: تركهم الاستجابة إلى إتيان عشرة سور مثله، فهل يكون فى التحدى أبلغ من هذا ؟ وقوله عز وجل: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أيضاً يتضمن معنى التحدى لأنه دعاهم إلى الإسلام لظهور عجزهم.

والموضع الرابع: فى السورة التى يذكر فيها بنى إسرائيل، وهو قوله: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[1].

فانظروا رحمكم الله، فهل يكون فى التحدى شئ أبلغ منه، وإخباره عز وجل: ﴿ لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴾ دليل: على أنه خبر من عند علام الغيوب؛ لأن الإنسان لا يعلم ما يكون بعده، والعاقل لا يرضى لنفسه أن يخبر خبرا، لا يأمن أن يقع غيره على خلاف ما أخبر فيظهر كذبه عند أوليائه وأعدائه، سيما إذا كان أمره مبنيا على الصدق، وبأن أعظم ما يرميه به أعداؤه: أنه كاذب فى دعواه، فوضح لما بيناه: أنه صدر عن العالم بما كان ربما يكون، وهو الله رب العالمين، وهذا مما يكون أن يعد دلالة برأسها، وسنذكرها وما يوضحها من بعد، بعون الله تعالى.

والموضع الخامس: فى السورة التى يذكر فيها القصص، وهو قوله تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ

---

١ - الإسراء: ٨٨

يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١)

كان قوله عز وجل: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ تحديا ظاهرا، وقوله: ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ تحد ثان، لأنه قرعهم بترك الاستجابة إلى ذلك، ودل بذلك على أنهم يتبعون أهواءهم، وقوله: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ تحد ثالثاً، لأنه ذمهم ونسبهم إلى الضلال لإتباعهم الهوى الذى جعل تركهم الاستجابة إلى الإتيان به علما عليه، وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ فى هذا الموضع أيضا فيه معنى التحدى لأنه أخبر أن الله لا يهديهم.

والموضع السادس: فى الطور حيث يقول: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٣٣ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ (٢) وكان هذا تحديا ظاهرا.

فأما المواضع التى تتضمن معنى التحدى ولو لم يكن اللفظ لفظ التحدى. فكثير كقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾(٣) وقوله: ﴿ الر ۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾(٤) وقوله: ﴿ الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾(٥) وقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ﴾(٦) وقوله: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾(٧) وقوله بعد آية التحدى: ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾(٨) وقوله: ﴿ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا

---

١ - القصص: ٤٩-٥٠
٢ - الطور: ٣٣-٣٤
٣ - العنكبوت: ٥١
٤ - هود: ١
٥ - إبراهيم: ١
٦ - الرعد: ٣١
٧ - الحشر: ٢١
٨ - يونس: ٤٢

يُبْصِرُونَ ﴾[1] لأن ذلك يحرك الطبع، ويقوى الداعى إلى التحكك والمعارضة، ونظائرها كثير.

فإن قيل: دلوا على أن هذه الآيات هى من القرآن الذى تلاه النبى – صلى الله عليه وسلم – على الناس وأنها ليست زيادة فيه.

قيل له: من العلماء من رأى أن العلم بكل آية من القرآن، مما أتى به النبى – صلى الله عليه وسلم – على الناس وأنها ليست زيادة فيه.

قيل له: من العلماء من رأى أن العلم بكل آية من القرآن، مما أتى به النبى – صلى الله عليه وسلم – علم ضرورى. كما أن العلم بجملته ضرورى. قال: لأن القرآن كله آية آية، فلو لم يكن العلم بكل آية علما ضروريا، لم يكن العلم بجميع القرآن ضروريا، لكنا لا نقتصر على هذا القدر، ونوضح الكلام فيه فنقول:

لا إشكال، أن هذه الآيات كانت كلها فى المصاحف التى كتبت أيام عثمان[2] وتلك المصاحف كتبت بمشهد أقوام لا يجوز التواطؤ عليهم لكثرتهم، وفيهم الحفاظ، منهم من كان يعرف الفرق بين ما هو من القرآن، وما ليس من القرآن، بل كان أكثرهم – والله أعلم – بهذه الصفة، كما أن عامة المسلمين اليوم وان لم يكونوا حفاظا، يفصلون بين ما هو من القرآن وما ليس من القرآن، فلم ينقل عن أحد أنه تكلم فى ذلك، وأنكر معرفتهم، كما نقل ما كان من ابن

---

١ – يونس: ٤٣

٢ – عثمان: ذو النورين وهو ثالث الخلفاء الراشدين أبو عبد الله أو أبو عمرو: عثمان بن عفان بن أبى العاص القرشى الأموى، يلتقى نسبه بنسب الرسول – صلى الله عليه وسلم – فى عبد مناف، ولد فى مكة سنة ٤٧ ق. هـ وتزوج رقية ابنة النبى – صلى الله عليه وسلم – وبعد موتها تزوج ابنته الثانية أم كلثوم سنة ٣ هـ فسمى ذو النورين، ولم يتزوج أحد قط ابنتى نبى غيره، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وفى فضله أحاديث وأخبار كثيرة، بويع بالخلافة بعد دفن عمر بثلاثة أيام يوم السبت غرة محرم سنة ٢٤ هـ توسعت الفتوحات الإسلامية فى زمنه، وأثيرت ضده فتنة قتل فيها ظلماً وهو يقرأ القرآن فى داره بالمدينة يوم الجمعة ١٨ ذى الحجة سنة ٣٥ هـ وكان عمره ٨٢ سنة، ومدة خلافته ١١ سنة و١١ شهراً و١٧ يوماً، وله فى كتب الحديث ١٤٦ حديثاً (الإصابة ٢: ٤٦٢، الأعلام ٤: ٢١٠).

مسعود[1] فى (المعوذتين) وفى آى من سورة (القنوت) ومن عمر[2] فيما ذكره من (الرحمن) ومن عائشة[3] فيما ذكر من (الرضاع) وغير ذلك مما جرى مجراه، فلولا أن هذه الآيات بأن كونها من جملة القرآن ظاهرا مكشوفا لجرى فيها التضاد، وعرض فيها النزاع.

---

١ - عبد الله بن مسعود (ــ ٣٢ هـ) هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلى، أبو عبد الرحمن من أهل مكة. من أكابر الصحابة فضلاً وعقلا. ومن السابقين إلى الإسلام. وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرتين. شهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله علية وسلم وكان أقرب الناس إليه هدياً ودلاً وسمتاً. أخذ من فيه سبعين سورة لا ينازعه فيها أحد. بعثه عمر إلى أهل الكوفة ليعلمهم أمور دينهم. له فى الصحيحين ٨٤٨ حديثاً. [الطبقات لابن سعد ٣/ ١٠٦ ؛ والإصابة ٢/ ٣٦٨ ؛ والأعلام ٤/ ٤٨٠].

٢ - هو أمير المؤمنين أبو حفص عمر بن الخطاب بن نفيل القرشى العدوى، ولد بمكة بعد عام الفيل بثلاث عشر عاماً (٤٠ ق.هـ)، وكان من تجار مكة، أسلم قبل الهجرة بأربع سنوات بعد أربعين رجلاً وإحدى عشرة امرأة منهن أخته فاطمة زوجة سعيد بن زيد، فقوى المسلمون بإسلامه، ولقبه النبى – صلى الله عليه وسلم – بالفاروق، وتزوج ابنته حفصة بعد الهجرة، وهو أول من بادر إلى بيعة أبى بكر بالخلافة بعد وفاة النبى – صلى الله عليه وسلم – وعهد إليه أبو بكر بالخلافة يوم وفاته فبويع بها بنفس اليوم سنة ١٣ هـ واصلت الجيوش الإسلامية فى عهده الفتوحات فتم فتح الشام والعراق ومصر ومعظم بلاد فارس، وهو أول من تسمى بأمير المؤمنين، ودوّن الدواوين فى العطاء، ورتب الناس على سوابقهم، وأرخ بالهجرة، وقد عدّ بحق أعظم شخصية إسلامية عربية بعد وفاة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وورد فى فضائله أحاديث كثيرة. طعنه أبو لؤلؤة فيروز الفارسى المجوسى غلام المغيرة بن شعبة بخنجر فى خاصرته وهو يهم بصلاة الصبح ليوم الأربعاء ٢٨ ذى الحجة سنة ٢٣ هـ فصلى بالناس عبد الرحمن بن عوف فقصّر جداً، ثم حملوه إلى بيته، فجعل الخلافة شورى فى ستة توفى رسول الله وهو عنهم راض، وهم: عثمان بن عفان، وعلى بن أبى طالب، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبى وقاص، وعبد الرحمن بن عوف. عاش بعد الطعنة ثلاث ليال، وتوفى وعمره ٦٣ سنة، وقد دامت خلافته عشر سنين وستة أشهر، له ٥٣٧ حديثاً (الإصابة ٢: ٥١٨، القاموس الإسلامى ٥: ٥٢٢).

٣ - عائشة (٩ ق هـ ــ ٥٨ هـ) هى عائشة الصديقة بنت أبى بكر الصديق عبد الله ابن عثمان. أم المؤمنين، وأفقه نساء المسلمين. كانت أديبة عالمة. كنيت بأم عبد الله. لها خطب ومواقف. وكان أكابر الصحابة يراجعونها فى أمور الدين. وكان مسروق إذا روى عنها يقول: حدثتنى الصديقة بنت الصديق. نقمت على عثمان رضى الله عنه فى خلافته أشياء، ثم لما قتل غضبت لمقتله. وخرجت على على رضى الله عنه، وكان موقفها المعروف يوم الجمل ثم رجعت عن ذلك، وردها على إلى بيتها معززة مكرمة. للزركشى كتاب ((الإجابة لما استدركته عائشة على الصحابة)). [الإصابة ٤/ ٣٥٩ ؛ وأعلام النساء ٢/ ٧٦٠؛ ومنهاج السنة٢/ ١٨٢ ـ ١٩٨].

فإن قيل: ما تنكرون على من قال لكم: أنهم جميعا سكتوا عنها، لأنها كانت مقوية لأمرهم، معلية لكلمتهم، مصححة لنحلتهم.

قيل له: الاتفاق على مثل ذلك لا يصح من العدد الكثير، ولولا ذلك لم يصح أن يقع العلم بشئ من الأخبار التى تعلق بها الأغراض، وذلك أن الطبائع مبنية على نشر الأخبار إذا عرفتها الجماعة الكثيرة، ضرتهم أو نفعتهم، لأن الدواعى إلى النشر كثيرة مختلفة، فيخرج المكتوم لأغراض مختلفة، فلو كان الأمر على ما ذكرتم، والحال على ما توهمتم، لظهر ذلك، ونقل ولم ينكتم، لأن واحدا كان لديانته، وسداد طريقته يذكره إنكارا وتوجعا، وآخر كان لسخافة دينه، وضعف عقيدته يذكره لبعض أعداء الدين تقربا وتوددا، وآخر كان يورده ويحكيه لأهله ولولده تحيرا وتعجبا،وآخر كان يرى أن فيه ضربا من الجلادة[1] والشهامة فيحكيه افتخارا وتبجحا، وآخر يذكره لضيق عطنه عن حفظ الأسرار، والأغراض فى هذا الباب أكثر من أن تعد وتحصى، ثم كان من يسمع منهم، أو من واحد منهم ينشره بغير حساب، فلا تلبث الأيام والليالى حتى ينتشر ويذيع. وبهذا تجد أسرار الملوك مع ما يتعلق بهم من عظيم الرهبة والرغبة متى جرت بين عشرين أو خمسة أو عشرة أو دون ذلك لم تنكتم وظهرت فى أقرب زمان، وأرخى مدة..

لهذا قيل:

إذا جاوز الاثنين: سر فإنه ... يبث، وإفشاء الوشاة قمين

على أن مثل ذلك لو كان جائزا أن يكون الفرزدق[2]، كان ملجما لا يقول الشعر، وإنما اجتمع عدة من الشعراء لأغراض كانت لهم على أن يعطوا قصائد، وينسبونها إليه، وكان مثله على كل مصنف فى أى جنس من أجناس العلوم كان مثل ما كان

---

١ - الجلادة: شدة التحمل والصبر الجميل.

٢ - الفرزدق هو همام بن غالب بن صعصعة التميمى الدارمى وكنيته أبو فراس. وهو من سلالة مضر بن نزار. شاعر من النبلاء و عظيم الأثر فى اللغة وسمى الفرزدق لضخامة وتجهم وجهه ولقبه الفرزدق، ومعناها الرغيف، لقب بذلك لجهامة كانت فى وجهه، وقيل لقبح ودمامة، إذ كان وجهه كالرغيف المحروق.

من ذلك مما لا يستجيزه عاقل: ولا يرتاب فيه، لأنه لو كان أظهر، كان ما سألوا فيه كذلك. وهذا الباب قد استقصاه: أبو عثمان الجاحظ فى (الفرق بين النبى والمتنبئ) استقصاء شافيا، وفيما أوردناه كفاية وبلاغ.

فإن قيل: ما أنكرتم أن هذا الاتفاق جرى من عدد يسير نحو ثلاثة أو أربعة أو خمسة، ومثلهم يجوز أن يقع منهم التواطؤ على الكذب وحفظ السر.

قيل له: هذا سؤال من يغش نفسه عن علم منه بأحوال الصحابة أيام عثمان. أو يقول غير مراقب عن جهل منه بها. وذلك أن الحفاظ فى ذلك الوقت كان فيهم كثرة نحو أمير المؤمنين علي[1] – عليه السلام – وعثمان بن عفان، وعبدا لله بن مسعود، وعبدا لله بن العباس[2]، وعبدا لله ابن عمر بن الخطاب[3]، وأبى بن كعب[4]، وزيد

---

١ - على (٢٣ ق هـ ــ ٤٠ هـ) هو على بن أبى طالب، واسم أبى طالب: عبد مناف بن عبد المطلب. من بنى هاشم، من قريش أمير المؤمنين. ورابع الخلاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة. زوجة النبى صلى الله علية وسلم بنته فاطمة. ولى الخلافة بعد مقتل أمير المؤمنين عثمان، فلم يستقم له الأمر حتى قتل بالكوفة. كفرة الخوارج، وغلا فيه الشيعة حتى قدموه على الخلفاء الثلاثة، وبعضهم غلا حتى فيه حتى رفعه إلى مقام الألوهية. ينسب إليه ((نهج البلاغة)) وهو مجموعة خطب وحكم، أظهر الشيعة فى القرن الخامس الهجرى ويشك فى صحة نسبته إليه.

[الأعلام للزركلى ٥/ ١٠٨ ؛ ومناهج السنة ٣/ ٢ وما بعدها ؛ والرياض النضرة ٢/ ١٥٣ وما بعدها]

٢ - ابن عباس (٣ ق هـ - ٦٨ هـ) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب. قرشى هاشمى. حبر الأمة وترجمان القرآن. أسلم صغيراً ولازم النبى صلى الله علية وسلم بعد الفتح وروى عنه. كان الخلفاء يجلونه. شهد مع على الجمل وصفين. وكف بصرة فى أخر عمره. كان يجلس للعلم. فيجعل يوما للفقه ويوماً للتأويل، ويوماً للمغازى، ويوماً للشعر، ويوماً لوقائع العرب توفى بالطائف { الأعلام للزركلى، والإصابة، ونسب قريش ص ٢٦ }.

٣ - ابن عمر (١٠ ق هـ - ٧٣ هـ) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب، أبو عبد الرحمن. قرشى عدوى. صاحب رسول الله صلى الله علية وسلم. نشأ فى الإسلام، وهاجر مع أبيه إلى الله ورسوله. شهد الخندق وما بعدها، ولم يشهد بدرا ولا أحداً لصغره. أفتى الناس ستين سنة. ولما قتل عثمان عرض علية ناس أن يبايعوه بالخلافة فأبى شهد فتح أفريقية. كف بصره فى آخر حياته. كلن آخر من توفى بمكة من الصحابة. هو أحد المكثرين من الحديث عن الرسول صلى اله علية وسلم. { الإعلام للزركلى ٤/ ٢٤٦، والإصابة، وطبقات ابن سعد، وسير النبلاء للذهبى، وأخبار عبد الله ابن عمر لعلى الطنطاوى }.

٤ - أبى بن كعب (؟ - ٢١ هـ) هو أبى بن كعب بن قيس بن عبيد، أبو المنذر من النجار لخزرج، صحابى، أنصارى كان من كتاب الوحى، وشهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله

بن ثابت[1]، وعبد الله بن عمرو ابن العاص[2]، وغيرهم، وكثير من هؤلاء كانت بينهم منافرات، بحيث لو عثر بعضهم على خيانة بعض فى مثل هذا الأمر العظيم كان يسرع إلى التنديد به، فأما من كان منهم يعرف القرآن، أو كان يحفظ السور منه فكثير لا يحصون، وكيف يصح اجتماع ما ذكرتم ؟ أم ما الذى يغنى لو اجتمعوا ؟

فإن قيل: ما أنكرتم على من قال: أنى أسلم أن هذه الآيات كانت فى جملة القرآن، لكن ما تنكرون: أن تكون هذه الآيات لم تكن تلفت مشركى العرب، ولم تكن قرعت أسماءهم، ولا علقت بأفهامهم، لأنها أو عامتها فى السور الطوال. وكان الذى تعلق لحفظ مشركى العرب، إنما هو الآية بعد الآية، والكلمة بعد الكلمة، أو السورة بعد السورة من السور القصار، وكانت هذه الآيات مغمورة فى جملة القرآن، وفى السور الطوال، فبهذا لم يهتموا بمعارضته.

صلى الله عليه وسلم، وكان يفتى على عهده، وشهد مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقعة الجابية، وأمره عثمان رضى الله عنه بجمع القرآن، فاشترك فى جمعه. وله فى الصحيحين وغيرهما ١٦٤ حديثاً وآخى النبى صلى الله عليه وسلم بين أبى بن كعب وطلحة بن عبيد الله رضى الله عنهما، وعن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم، قال: أقرأ أمتى أبى بن كعب.
[الاستيعاب ١/ ٦٥،والإصابة ١/ ١٩،وأسد الغابة ١/ ٤٩ وطبقات ابن سعد ٣/ ٤٩٨،والأعلام ١/ ٧٨]..

١ - زيد بن ثابت (١١ق هـ ـ ٤٥ هـ) هو زيد بن ثابت بن الضحاك. من الأنصار، ثم من الخزرج. من أكابر الصحابة. كان كاتب الوحى. ولد فى المدينة،ونشأ بمكة، وهاجر مع النبى صلى الله علية وسلم وعمره (١١) سنة. تفقه فى الدين فكان رأساً فى القضاء والفتيا والقراءة والفرائض. وكان أحد الذين جمعوا القرآن فى عهد النبى صلى الله علية وسلم وعرضه علية. كتب المصحف لأبى بكر، ثم لعثمان حين جهز المصاحف إلى الأمصار.
[الأعلام للزركلى ؛ تهذيب التهذيب ٣/ ٣٨٩؛ وغاية النهاية ١/ ٢٩٦]

٢ - عبد الله بن عمرو: هو عبد الله بن عمرو بن العاص، أبو محمد. صحابى قريشى. أسلم قبل أبيه. قال فيهم رسول الله صلى الله علية وسلم: نعم أهل البيت عبد الله وأبو عبد الله وأم عبد الله كان مجتهداً فى العبادة غزير العلم. وكان أكثر الصحابة حديثاً. وروى عن عمر وأبى الدرداء وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم من الصحابة، وحدث عنه بعض الصحابة وعدد كثير من التابعين. استأذن النبى صلى الله علية وسلم فى كتابة ما كان يسمعه منه فأذن له، فكتب. وكان يسمى صحيفة تلك ((الصادقة)). [طبقات ابن سعد ٤/ ٨؛ والإصابة ٢/ ٣٥١؛ وتهذيب التهذيب ٥/ ٣٣٧].

قيل لهم: قد علمنا أن النبى – صلى الله عليه وسلم – كان يتلوا القرآن على أصحابه، وعلى من كان يفد عليه من المشركين من أحياء العرب ومدنها، ثلاث وعشرين سنة حتى تحققه الخلق من الصحابة، وكانوا يتلونه فى المحافل والمجامع، وبين أهليهم فى صلواتهم ومدارسهم ومجالسهم، وكان المشركون يسمعون ذلك، ويقرع أسماعهم، وإن لم يكونوا يحفظونه.

وانتهى الإسلام فى هذه المدة إلى اليمين، وسائر نواحى العرب، ويكفى فى آية واحدة من آيات التحدى أن يقرع أسماعهم، فكيف يصح أن يقال: أنها لم تبلغهم، إلا أن يكون الله تعالى قد صرفهم عن سماعها ولئن جاز ذلك، فالصرف من عظيم المعجزات.

على أن عامة آيات التحدى إنما هى فى السور المكية[1]، ولم يكن لرسول الله –

---

١ – للعلماء فى بيان المراد بالمكى والمدنى ثلاثة اتجاهات:

١ – المكى: ما كان خطاباً لأهل مكة، والمدنى: ما كان خطاباً لأهل المدينة، وعلى هذا: فما كان الخطاب فيه بـ (يا أيها الناس) يكون مكياً، وما كان الخطاب فيه بـ (يا أيها الذين آمنوا) يكون مدنياً، وعللوا ذلك بقولهم: لما كان الكفر غالباً على أهل مكة، كان الأنسب أن يخاطبوا بعبارة (يا أيها الناس)، ولما كان الإيمان غالباً على أهل المدينة كان الأنسب أن يخاطبوا بعبارة (يا أيها الذين آمنوا). كما أنهم اعتبروا صيغة (يا بنى آدم) ملحقة بـ (يا أيها الناس) فى دلالتها على المكى.

٢ – المكى: ما نزل بمكة، ولو بعد الهجرة، والمدنى: ما نزل بالمدينة: وضواحى مكة لاحقة بها مثل: عرفات ومنى والحديبية، كما أن ضواحى المدينة مثل: بدر، وأحد، لاحقة بها. وقد روعى فى هذا الاصطلاح مكان النزول. لكنه غير جامع ولا مانع، إذ لا يندرج تحته ما نزل فى غير مكة والمدينة وضواحيها. مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ ﴾ التوبة: ٤٢ فإنها نزلت بتبوك، وقوله تعالى: ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ ﴾ الزخرف: ٤٥ فإنها نزلت ببيت المقدس ليلة الإسراء.

٣ – المكى: ما نزل قبل الهجرة النبوية إلى المدينة، ولو كان نزوله بغير مكة، والمدنى: ما نزل بعد الهجرة وإن كان نزوله بغير المدينة. وهذا الاصطلاح روعى فيه زمن التنزيل. وهو اصطلاح جامع مانع: فهو شامل لجميع آيات التنزيل ولا يتطرق إلى القصور، وذلك لأنه قائم على الأساس التاريخى. ومن المعلوم أن مدة التنزيل كلها تنقسم إلى قسمين لا ثالث لهما: قبل الهجرة وبعدها، بغض النظر عن تعدد الأماكن والبقاع.

وعلى هذا فقد اعتمده المحققون والعلماء، وتظهر ثمرة ذلك: أن قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ النساء ٥٨، يعد من قبيل المدنى على الرغم من نزوله بمكة – فى جوف الكعبة –

صلى الله عليه وسلم وعلى أهله – وهو بمكة[1] شغل بالجهاد، وبيان الأحكام، وإنما كان أكثر شغله – صلى الله عليه – الدعاء إلى الله تعالى، وقراءة القرآن، على ما كان يستدعيه.

يؤكد ما ذكرناه ويوضحه: الآثار الواردة فى اجتماع مشركى العرب على التشاور والنظر فى حال القرآن، وتدبر آمره، حتى قال الوليد بن المغيرة[2] – لعنه الله: " قد سمعت الأشعار والخطب، وكلام الكهنة[3]، وليس القرآن شيئا من ذلك " ثم قال

عام الفتح الأعظم. وكذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ يعد من المدنى مع أنها نزلت بعرفة – يوم الجمعة – بحجة الوداع. (مناهل العرفان: ١: ١٨٨).

١ – بكة – مكة: Bakkah: البلد الحرام، موضع الكعبة، وزمزم، والمقام؛ سميت مكة لأنها تمُكُّ الجبارين، أى تُذهب نخوتهم؛ وقيل: سميت مكة لازدحام الناس بها؛ وقيل: سميت مكة لأن العرب فى الجاهلية كانت تقول: لا يتم حجنا حتى نأتى مكان الكعبة، ومن أسمائها: أم زحم، وأم القرى، ومعاد، والحاطمة، والبيت العتيق، والرأس، والحرم، وصَلاح، والبلد الأمين، والنسّاسة، والناسّة، والباسّة، والقادس، والعرش، والمُذهَب، وبكة ؛ وقال قوم: بكة، موضع البيت، ومكة: ما حول البيت؛ وفى التنزيل، قوله تعالى: ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ ﴾ (الشورى:٧) وقوله سبحانه: ﴿ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾ (التين:٣)

٢ – هو أبو عبد شمس الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو المخزومى، عاش مابين ٩٥ ق.هـ – ١ هـ من قضاة العرب فى الجاهلية ومن زعماء قريش وزنادقتها، ويقال له (العدل) لأنه عدل قريش كلها، فقريش جميعها تكسو البيت وهو يكسوه وحده، حرم الخمر على نفسه فى الجاهلية وضرب ابنه هشام على شربها، وأدرك الإسلام وهو شيخ هرم فعاداه وقاوم دعوته، وهو الذى جمع قريشاً ليوحد قولهم فى محمد – صلى الله عليه وسلم – وفى القرآن الكريم، فرأى أن أصلح ما قيل فيه إنه سحر، فنزلت فيه آيات سورة المدثر ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ۝ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ نَظَرَ ۝ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ۝ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدّثر: ١١–٣٠]"، وهو والد سيف الله خالد بن الوليد، وقد هلك بعد الهجرة بثلاثة أشهر ودفن بالحجون (الأعلام ٨: ١٢٢).

٣ – جمع كاهن، وهو فى اصطلاح اليهود الشخص المخصص لتقديم الذبائح، وقد عيّن موسى رتبة الكهنوت فى ذرية هارون، وكانت لهم واجبات الذبائح اليومية والأسبوعية والشهرية والسنوية، وخدمة الاحتفالات، والتطهير، والاعتناء بالآنية والنار والأثاث، وحمل تابوت العهد، والقضاء فى الدعاوى، وتفسير الناموس للشعب، وكان تقديس الكاهن يجرى فى احتفال عظيم لمدة سبعة أيام ترافقه أعمال معينة بثياب مخصصة لذلك، ويحرم على الكاهن أشياء كثيرة هى حلال لغيره (قاموس الكتاب المقدس: ٧٩١).

ما حكى الله عنه فى قوله: ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾[1] فالتجأ إلى أن قال: أنه سحر، لما بهره أمره.

وروى، أنهم اجتمعوا وتشاوروا حوله فى أمره، أبو جهل[2] - لعنه الله - والملأ من قريش[3]، قد التبس أمره، فقالوا: فعليكم برجل يعرف السحر والكهانة والشعر، فقال عتبة بن ربيعة[4]، أنا لذلك، فأتى النبى صلى الله عليه - فخاطب إلى أن تلا عليه رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾[5] حتى انتهى إلى قوله: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾.

فقال عتبة: ناشدتك الله والرحم، ألا كففت، وقام جزعا، دهشا، مرعوبا، ورجع إلى أصحابه، وذكر لهم الحال، وعرفهم أنه قد تحير فيه، وأنه ليس من الشعر وكلام الكهنة فى شئ.

---

١ - المدثر: ٢١-٢٥

٢ - أبو جهل: هو عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومى القرشى، أحد سادات قريش ودهاتها فى الجاهلية، ويكنى أبا الحكم، أدرك الإسلام ولم يسلم، بل كان من أشد الناس عداوة للنبى - صلى الله عليه وسلم - فدعاه المسلمون أبا جهل، آذى الرسول والمسلمين فى مكة كثيراً واستمر فى عناده حتى قاد جيش المشركين فى وقعة بدر سنة ٢ هـ فكان من قتلاها (الأعلام ٥: ٨٨).

٣ - أكرم قبائل العرب، منها وفيها بُعث خاتم النبيين محمد - صلى الله عليه وسلم - وكانت فى الأصل متفرقة حول مكة، فجمعهم قصى ووحدهم وحارب بهم خزاعة حتى أجلاها عن البيت وأسكن مكانهم قريشاً بمكة قبل ظهور الإسلام بحوالى قرن، وتنقسم قريش إلى قسمين: قريش البطاح، وكانت منازلهم حول البيت الحرام وفى الشعب بين أخشبى مكة، وكانوا عشرة بطون أشهرهم بنو هاشم. قريش الظواهر: وكانوا خليطاً من الأحابيش والموالى، وكانت منازلهم فى ضواحى مكة وشعاب التلال المجاورة لها. وقد أجمع العلماء على أن قريشاً أفصح العرب ألسنة، وأصفاهم لغة. وكان لقريش أصنام كثيرة أهمها هُبل، وقد حاربت محمداً ودينه، وكان أول صدامها المسلح مع المسلمين فى غزوة بدر الكبرى فى السنة الثانية من الهجرة (معجم قبائل العرب ٣: ٩٤٧).

٤ - هو الوليد عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، كبير قريش وأحد ساداتها فى الجاهلية، كان موصوفاً بالرأى والحلم والفضل، وكان خطيباً نافذ القول، أدرك الإسلام ولم يُسلم، شهد قتال بدر مع المشركين ولم يجد خوذة تسع هامته لضخامة جثته وهامته، وقاتل قتالاً شديداً فأحاط به على وحمزة وعبيدة بن الحارث فقتلوه سنة ٢ هـ (الأعلام ٤: ٢٠٠).

٥ - فصلت: ١-٣

وقد حكى الله تعالى عن بعضهم أنه قال: ﴿ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ﴾[1] ويقال: أنه أمية بن خلف – لعنه الله.

وهذا دليل على أنه عرف التحدى والتقريع فدفع عن نفسه بما قال فى نفس الوقت والحال.

وأيضا. فإن النبى – صلى الله عليه وعلى آله وسلم – لما هاجر إلى المدينة[2]، كثر المنافقون، واختلطوا بالمسلمين، وحضروا الجماعات، ومواضع الصلوات، وكذلك أهل الكتاب اختلطوا بالمسلمين حتى لم يخف عليهم عامة أحوالهم، فكيف يظن بأنه خفى عنهم آيات التحدى بواحدة، وفى وقوف بعضهم عليها وقوف عامة المشركين، لأنهم كانوا يهدونها إليهم ولو على أجنحة الطير، لأغراض مختلفة على ما بيناه، فيسقط بما قلنا ما سألوه.

فإن قيل: يجوز أن يكون النبى – صلى الله عليه وسلم – استكتمهم هذه الآيات فكتموها،وأذاعوا سائر القرآن.

أحدهما: ما بيناه أن كتمان مثل هذا لا يصح، ولا يتأتى، ولا يجد المحاول إليه سبيلا.

والثانى: أنه كيف يستكتمهم النبى – صلى الله عليه وسلم – مع أنه يتلو عليهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا

---

١ – الأنفال: ٣١

٢ – المدينة المنورة تقع وسط غرب المملكة العربية السعودية شرقى البحر الأحمر بحوالى ١٧٥ كيلو متر، وهى ثانية المدن المقدسة عند المسلمين، وثانية أشهر مدن العالم بعد مكة المكرمة وأصغر منها بالمساحة والسكان، وتبعد عنها إلى الشمال حوالى ٤٥٠ كيلومتر، وقد هاجر النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة المنورة سنة ٦٢٢ م، سُمّى أهلها الأنصار لنصرهم النبى – صلى الله عليه وسلم – وفيها دُفن، وكثير من أصحابه (معجم البلدان ٥: ٨٢).

٣ – البقرة: ١٥٩

﴿ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

وكيف يظن بالعاقل: أنه يأمر أصحابه بكتمانه بعدما يدعيه وحيا نازلا من عند الله عز وجل، ثم يتلو عليهم فى الكتمان ما ذكرناه؟ على أنه كيف كان يأمن أن يكون فيمن يستكتم من يرتد، وينافق ويذيع ما استكتم؟ كما حكى من ارتداد عبد الله بن سرح[3] بعد ما كان رسول الله – صلى الله عليه – استكتمه كثيرا من الوحى معه، وأملاه عليه، على أن المسلمين كانوا لا يقرون يسيرا لشبهة حتى تنحل عنهم،

---

١ – البقرة: ١٧٤

٢ – النحل: ٤٤

٣ – وكان عبد الله بن سعد بن أبى سرح يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم الوحى فربما أملى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم سميع عليم فيكتب عليم حكيم فيقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول كذلك الله ويقره. وافتتن وقال ما يدرى محمد ما يقول إنى لأكتب له ما شئت، هذا الذى كتبت يوحى إلى كما يوحى إلى محمد. وخرج هاربا من المدينة إلى مكة مرتدا، فأهدر رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه يوم الفتح فلما كان يومئذ جاء ابن أبى سرح إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه وكان أخاه من الرضاعة فقال يا أخى، إنى والله اخترتك فاحتبسنى هاهنا، واذهب إلى محمد فكلمه فى، فإن محمدا إن رآنى ضرب الذى فيه عيناى إن جرمى أعظم الجرم وقد جئت تائبا. فقال عثمان انطلق معى، فلا يقتلك إن شاء الله فلم يرع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بعثمان أخذ بيد عبد الله بن سعد بن أبى سرح واقفين بين يديه فأقبل عثمان على النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إن أمه كانت تحملنى وتمشيه وترضعنى وتقطعه وكانت تلطفنى وتتركه فهبه لى. فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل عثمان كلما أعرض عنه النبى صلى الله عليه وسلم بوجهه استقبله فيعيد عليه هذا الكلام فإنما أعرض النبى صلى الله عليه وسلم عنه إرادة أن يقوم رجل فيضرب عنقه لأنه لم يؤمنه فلما رأى ألا يقدم أحد، وعثمان قد أكب على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه وهو يقول يا رسول الله تبايعه فداك أبى وأمى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم. ثم التفت إلى أصحابه فقال ما منعكم أن يقوم رجل منكم إلى هذا الكلب فيقتله ؟ أو قال " الفاسق ". فقال عباد بن بشر ألا أومأت إلى يا رسول الله ؟ فوالذى بعثك بالحق إنى لأتبع طرفك من كل ناحية رجاء أن تشير إلى فأضرب عنقه. فكان يفر من رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما رآه فقال عثمان لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأبى [أنت] وأمى، لو ترى ابن أم عبد الله يفر منك كلما رآك فتبسم النبى صلى الله عليه وسلم فقال أو لم أبايعه وأؤمنه ؟ قال بلى أى رسول الله ولكنه يتذكر عظيم جرمه فى الإسلام. فقال النبى صلى الله عليه وسلم الإسلام يجب ما كان قبله فرجع عثمان إلى ابن أبى سرح فأخبره فكان يأتى فيسلم على النبى مع الناس.

والمنافقون يتعلقون بيسير ما يظنونه شبهة، كما روى عن عمر وغيره يوم الحديبية[1]، حين أراد النبى – صلى الله عليه – الانصراف عنها، أنهم قالوا: " ألسنا وعدنا دخول مكة آمنين ؟ " فقيل: " هل عينت لكم هذه السنة بعينها ؟" قالوا:" اللهم. لا " فسكتوا واستقامت بصائرهم.

ولما روى أن ناقة رسول الله – صلى الله عليه وعلى آله – ضلت فتكلم المنافقون فى ذلك، حتى قال – صلى الله عليه –:" إنى لا أعلم إلا ما علمنيه الله تعالى " وذكر لهم موضع الناقة وحالها حتى وجدوها على ما وصف لهم.

والقوم الذين يراجعون هذه المراجعة، من مستبصر يطلب بها مزيد الاستبصار، ومنافق يحاول بها ما يجرى مجرى الطعن، كيف يظن بهم اتفاقهم على الكتمان، لمثل هذا الأمر العظيم ؟ ثم يقال لهم: هبكم شككتم فى وقوع التحدى بمكة والمدينة أيام رسول الله – صلى الله عليه وعلى آله – على أنا قد بينا ما يزيل الشك فيه – ألستم تتيقنون وقوعه من أيام عمر وعثمان إلى يومنا هذا، يكرر على أسماع كل مخالف لدين الإسلام منحرف عن تصديق الرسول – صلى الله عليه وعلى آله – ينقلونه بالتقريع، والعيب الوجيع، للعجز الظاهر عن الإتيان بمثله، وهذا كاف فى التحدى، ووقوعه.

فإن قيل: فالمروى عن الأكثر: أنهم أسلموا لغير سماع القرآن، كما روى أن "العباس"[2] أسلم حين أخبره رسول الله – صلى الله عليه – بما كان من إيداعه المال زوجته " أم الفضل " لما أراد الخروج إلى "بدر" وما روى عن "عمير بن وهب[3]"

---

١ – فى يوم الاثنين الأول من ذى القعدة سنة ٦هـ (٦٢٨ م)، والحديبية مكان غرب مكة المكرمة على تسعة أميال منها، (الحميرى، الروض المعطار، ص ١٩٠، ياقوت، معجم ٢ / ٢٣٣)

٢ – العباس بن عبد المطلب (٥١ ق هـ ــ ٣٢ هـ) هو العباس بن عبد المطلب بن هاشم. عم رسول الله صلى الله علية وسلم، وجد الخلفاء العباسين. كان فى قريش سيداً مشهوراً بالرأى. وكانت إليه سقاية الحاج، من مآثر قريش، وأقرت له فى الإسلام. قيل إنه أسلم قبل الهجرة. هاجر متأخراً. وشهد الفتح وحنيناً. وكان الخلفاء يجلونه. [الأعلام للزركلى ٤/ ٣٥ ؛ والإصابة ؛ وأسد الغابة]

٣ – إنه عمير بن وهب –رضى الله عنه–، كان واحدًا من قادة قريش، وبطلاً من أبطالها، كان حادَّ الذكاء، وداهية حرب، طلب منه أهل مكة يوم بدر أن يستطلع لهم عدد المسلمين الذين خرجوا مع الرسول للقائهم، ويعرف مدى استعدادهم. فانطلق هذا الداهية يترقب حول معسكر المسلمين، ثم رجع يقول لقومه: إنهم ثلاثمائة رجل، أو يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً، وكان تقديره صحيحًا، ثم

سأله قومه: هل وراءهم مدد أم لا؟ فقال: لم أجد وراءهم شيئًا، ولكنى رأيت قومًا وجوههم كوجوه الحيات، لا يموتون حتى يقتلوا منا أعدادهم، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم. والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم مثل عددهم، فما خير العيش بعد ذلك؛ فانظروا رأيكم. فتأثر عدد من زعماء قريش بكلامه، وكادوا يجمعون رجالهم ويعودون إلى مكة بغير قتال، لولا أن أبا جهل أيقظ فى نفوس الكفار نار الحقد، وأشعل نار الحرب، ولما نشبت المعركة، كان عمير بن وهب أول من رمى بنفسه عن فرسه بين المسلمين، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين على قريش، وعادت قوات قريش إلى مكة تجر خيبتها وراءها.

وبعد بدر، أقبل عمير بن وهب على ابن عمه صفوان بن أمية وهو جالس فى حجر الكعبة، وأخذا يتذكران ما حل بأهل مكة يوم بدر، فقال صفوان: قبح الله العيش بعد قتلى بدر، فقال عمير: صدقت، والله ما فى العيش خير بعدهم، ولولا دين على لا أملك قضاءه، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى؛ لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لى عنده علة (سببًا) أعتكُّ بها عليه: أقول: قدمت من أجل ابنى هذا الأسير، وكان ابنه وهب قد أسر يوم بدر، ففرح صفوان وقال له: على دينك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالى أواسيهم وأرعاهم.

فقال عمير لصفوان: اكتم خبرى أيامًا حتى أصل إلى المدينة، ثم جهز عمير سيفه وسنَّه، وجعله حادًا، ووضع عليه السم، ثم انطلق حتى وصل إلى المدينة، وربط راحلته عند باب المسجد، وأخذ سيفه، وتوجه إلى رسول الله (، فرآه عمر بن الخطاب، فأسرع إلى رسول الله (وقال: يا نبى الله، هذا عدو الله عمير بن وهب جاء رافعًا سيفه، لا تأمنه على شيء، فقال (لعمر: (أدخله علىَّ). فخرج عمر، وأمر بعض الصحابة أن يدخلوا إلى رسول الله (ويحترسوا من عمير، وأمسك عمر بثياب عمير، ودخل به، فقال (لعمر: (تأخَّر عنه (أى اتركه وابتعد عنه))، وقال لعمير: (اقترب يا عمير)، فاقترب عمير من الرسول، وقال: انعموا صباحًا (وهى تحية الجاهلية)، فقال له: (قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام تحية أهل الجنة). ثم سأله (: (فما جاء بك يا عمير؟) فقال عمير: جئت لهذا الأسير عندكم (يقصد ابنه وهبًا)، تفادونا فى أسرانا، فإنكم العشيرة والأهل، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: (فما بال السيف فى عنقك؟) قال عمير: قبحها الله من سيوف، وهل أغنت عنا شيئًا؟! إنما نسيته فى عنقى حين نزلت، ثم قال الرسول (: (أصدقنى يا عمير، ما الذى جئت له؟) فقال عمير: ما جئت إلا فى طلب أسيرى.

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى حجر الكعبة، ثم قلت: لولا دين على وعيال عندي؛ لخرجت حتى أقتل محمدًا، فتحمل لك صفوان ذلك، والله حائل (مانع) بينك وبين ذلك)، فقال عمير: أشهد أنك رسول الله، وأشهد أن لا إله إلا الله، كنا يا رسول الله نكذبك بالوحى، وبما يأتيك من السماء، وإن هذا الحديث كان بينى وبين صفوان فى الحجر، لم يطلع عليه أحد، فأخبرك الله به، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام، ففرح المسلمون بإسلام عمير فرحًا شديدًا. فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه: (علموا أخاكم القرآن، وأطلقوا أسيره) [ابن هشام وابن جرير].

هكذا أسلم عمير بن وهب، وأصبح واحدًا من أولئك الذين أنعم الله عليهم بالهدى والنور.

أمية " بمكة، إلى غير ذلك مما روى عن إسلام خلق كثير، لأسباب مختلفة غير سماع القرآن، وهذا يضعف تعلقكم بالقرآن، وبأن التحدى به كان قد وقع.

قيل: هذا يلزم من قال: أنه لا معجز له – صلى الله عليه – سوى القرآن، ولا أعرف مسلما يقول ذلك، أو يعتقده، وإذا كان هذا هكذا فليس ذلك طعنا فيما ذهب إليه، وسنفرد أن يسر الله سبحانه وتعالى بابا من هذا الكتاب نذكر فيه المشاهير من معجزاته – صلى الله عليه – التى هى سوى القرآن.

على أنه قد روى عن جماعة أنهم أسلموا حين سمعوا القرآن، ولو ثبت أن أحدا لم يسلم عنده، كان ذلك مما يقدح فى صحة كونه معجزا، دالا على صدق رسول الله – صلى الله عليه وعلى آله – والدليل لا يقدح فيه الاستدلال به، أو أن المستدل به لا يعرف بصحته، وإنما يجب علينا: أن ننظر فى حال الدليل، هل هو دليل صحيح أم لا؟ وأما ما عدا ذلك فيما لا فكر فيه. فمن روى أنه أسلم حين سمع القرآن: عمر بن الخطاب، وروى أنه أسلم حين سمع "طه".

وروى أن جبير بن مطعم[1] أسلم حين سمع النبى – صلى الله عليه – يقرأ: " والطور " وفيه آية التحدى الظاهر، حيث يقول: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾[2] وروى أن

---

١ – جبير بن مطعم (؟ – ٥٨ هـ) هو جبير بن مطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف، يكنى أبا محمد، وقيل أبا عدى، صحابى. كان من علماء قريش وسادتهم، وكان يؤخذ النسب عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه، وقدم على النبى صلى الله عليه وسلم فى فداء إسارى بدر فقال: ((لو كان الشيخ أبوك حياً فأتانا فيهم لشفعناه)) وكان للمطعم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يد. قال: فسمعته يقرأ الطور. فكان ذلك أول ما دخل الإيمان فى قلبى وأسلم جبير بين الحديبية والفتح، له ٦٠ حديثاً.
[الإصابة ١/ ٢٢٥، والأعلام ٢/ ١٠٣، وأسد الغابة ١/ ٢٧١، والاستيعاب ١/ ٢٣٢، وتهذيب التهذيب ٢/ ٦٣]

٢ – الطور: ٣٤

سعد بن معاذ[1] قرئ عليه القرآن، وأسلم. وكذلك: أسيد بن خضير[2].

فإن قيل: تلاوة آية التحدى لا تكون تحديا. وإنما التحدى أن يبتدئ مخاطبتهم بالتحدى.

قيل له: لا فرق بين الأمرين فى حصول التحدى: بل إذا قرأ عليهم آية التحدى، وعرفهم أنها من عند الله تعالى، ربما كان أبلغ فى التحدى، على أن آية التحدى فى أوائلها الأمر بالتحدى، لأنه تعالى يقول: " فليأتوا بحديث " ولا يجوز أن يظهر – صلى الله عليه وعلى آله – أن الله تعالى أمره أن يقول قولا إلا ويعرف منه أنه قال ذلك، أو ما ينوب منابه، بدل ذلك على أنه لا بد من أن يكون تحديا ابتداء فى المخاطبة.

---

١ - سعد بن معاذ (؟ - ٥ هـ) هو سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس، أبو عمر، الأوسى، الأنصارى. صحابى من الأبطال رضى الله عنه. من أهل المدينة، كانت له سيادة الأوس، وحمل لواءهم يوم بدر. وشهد أحداً، فكان ممن ثبت فيها. وكان من أطول الناس، وأعظمهم حيلة، ورُمِى بسهم يوم الخندق، فمات من أثر جرحه، وحزن عليه النبى ﷺ وفى الحديث: " اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ " [الإصابة ٢/ ٣٨، وأسد الغابة ٢/ ٢٢١، وتهذيب التهذيب ٣/ ٤٨١، والأعلام ٣/ ٣٩].

٢ - أسيد بن خضير (؟ - ٢٠ هـ) هو أسيد بن خضير بن سماك بن عتيك، أبو يحيى، الأوسى، صحابى. كان شريفا فى الجاهلية والإسلام، من أهل المدينة، يعد من عقلاء العرب. زذزى الر؟ أى فيهم. روى عن النبى صلى الله علية وسلم. وعنه أبو سعيد الخدرى وأنس وأبو ليلى الأنصارى وكعب بن مالك وغيرهم رضى الله عنهم أجمعين. شهد العقبة الثانية مع السبعين من الأنصار، وكان أحد النقباء الاثنى عشر، وشهد أحدا فجرح سبع جراحات وثبت مع رسول الله صلى الله علية وسلم حين انكشف الناس، وشهد الخندق والمشاهد كلها، وفى الحديث: ((نعم الرجل أسيد بن الحضير)). له ثمانية عشر حديثاً.
[أسد الغابة ١/ ١١٣، وتهذيب التهذيب ١/ ٣٤٧، والأعلام ١/ ٣٣٠]

الفصل الثانى
الكلام فى أن معارضة القرآن لم تقع

فإن قيل: فما الدليل على أن رسول الله – صلى الله عليه وعلى آله – لما تحداهم بالقرآن لم يعارضه أقوام ولم يأتوا بمثله ؟

قيل له: الدليل على ذلك أنه لو كان لنقل: ولو نقل لوقع العلم فلما لم يقع العلم به، علمنا أنه لم ينقل، وإذا ثبت أنه لم ينقل، ثبت أنه لم يكن.

فإن قيل: فلم ادعيتم أنه إذا لم ينقل يجب القطع على أنه لم يكن ؟

قيل له: لأنا بمثل هذه الطريقة نعلم أنه لم تجر بين رسول الله – صلى الله عليه – وبين قريش من مبعثه – صلى الله عليه – إلى يوم بدر[1] وقعة، مثل وقعة بدر وأنه لم يكن بين وقعة بدر ووقعة أحد[2] مثل واقعة أحد. وأن الأحزاب[3] لم يجتمعوا على

---

١ – بدر: مكان بين مكة والمدينة وبه ماء مشهور باسم بئر بدر والمكان خلده انتصار المسلمين فيه على قريش، ويقال بدر اسم بئر لرجل اسمه بدر (ياقوت، معجم البلدان (١ / ٣٥٧)

٢ – منتصف شوال من السنة الثالثة للهجرة، مكانها سفح جبل أُحد الذى يقع فى الشمال من المدينة وسمى أحد لتوحده وانقطاعه عن جبال أخرى هناك ، (ياقوت، معجم ١ / ١٠٩) ، وفيها أنظر: طبقات ابن سعد (٢ / ١٩٧)، وسيرة ابن هشام (٣: ٣)، وصحيح البخارى (٥ / ٩٣)، ومسلم بشرح النووى (١٢ / ١٤٧)، وأنساب الأشراف للبلاذرى (١ / ١٤٨)، والسيرة الحلبية (٢ / ٢٨٤)، والسيرة الشامية (٤ / ٢٧١).

٣ – وكانت فى شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة، وفيها أنظر، الواقدى، المغازى (٤ / ٣٦٢)، وسيرة ابن هشام (٣ / ١٠٦)، وتاريخ الطبرى (٢ / ٩٠)، وابن كثير، البداية والنهاية (٣ / ٩٢)

باب المدينة إلا مرة واحدة، وأنه لم تجر بين أبى حنيفة[1] وابن أبى ليلى ومالك[2] نقائض فى الشعر مثل ما جرى بين الفرزدق وجرير[3] والأخطل[4] والبُعَيث[5]. وأن جعفر ابن محمد – عليه السلام – لم يقع منه خروج مثل خروج زيد بن على – عليهما

---

١ – أبو حنيفة (٨٠-١٥٠ هـ) هو النعمان بن ثابت بن كاوس بن هرمز. ينتسب إلى تيم بالولاء. الفقيه المجتهد المحقق الإمام، أحد أئمة المذاهب الأربعة، قيل: أصله من أبناء فارس، ولد ونشأ بالكوفة كان يبيع الخز ويطلب العلم ؛ ثم انقطع للدرس والإفتاء. قال فيه الإمام مالك ((رأيت رجلا لو كلمته فى هذه السارية أن يجعلها ذهبا لقام بحجته)) وعن الإمام الشافعى انه قال: ((الناس فى الفقه عيال على أبى حنيفة ((مسند)) فى الحديث ؛ و ((المخارج)) فى الفقه ؛ وتنسب إليه رسالة ((الفقه الأكبر)) فى الاعتقاد ؛ ورسالة ((العالم والمتعلم)).

[الأعلام للزركلى ٩/ ٤؛ والجواهر المضية ١/ ٢٦ ؛ و ((أبو حنيفة)) لمحمد أبى زهرة ؛ والانتقاء لابن عبد البر ؛ ١٢٢ – ١٧١ ؛ وتاريخ بغداد ١٣/ ٣٢٣/ ٤٣٣].

٢ – مالك (٩٣ – ١٧٩ هـ) هو مالك بن أنس بن مالك الاصبحى الأنصارى إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. أ خذ العلم عن نافع مولى ابن عمر، والزهرى، وربيعة الرأى، ونظرائهم. وكان مشهورا بالتثبيت والتحرى: يتحرى فيمن يأخذ عنه، ويتحرى فيما يرونه من الأحاديث، ويتحرى فى الفيتا: لا يبالى أن يقول: ((لا أدرى)). وروى عنه أنه قال: ((ما أفتيت حتى شهد سبعون شيخا أنى موضوع لضلك)) . اشتهر فى فقه باتباع الكتاب والسنة وعمل أهل المدينة. كان رجلا مهيبا: وجه إليه الرشيد فجلس بين يدى مالك. وقد امتحن قبل ذلك، فضربه أمير المدينة ما بين ثلاثين إلى مائه سوط ومدت يداه حتى انحلت كتفاه وكان سبب ذلك أنه أبى إلا أن يفتى بعدم وقوع طلاق الكره. ميلاده ووفاته بالمدينة. من تصانيفه: ((الموطأ)) و((تفسير غريب القرآن) وجمع فقه فى ((المدونة)). وله ((الرد على القدرية)) و((الرسالة)) إلى الليث بن سعد. [الديباج المذهب ص ١١ – ٢٨ ؛ وتهذيب التهذيب ١٠/ ٥؛ ووفيات الأعيان ١/ ٤٣٩].

٣ – جرير هو أبو حرزه جرير بن عطية اليربوعى التميمى (ت.١١٠هـ) ينتمى إلى قبيلة كليب من بنى تميم. ولد فى اليمامة (فى منطقة الرياض حاليا) فى خلافة عثمان بن عفان، اشتهر فى المدح والهجاء توفى بعد موت الفرزدق بشهور سنة ١١٠هـ. و قد بقى لبنيه أملاك فى بلدة أثيثية (منطقة الوشم شمال غرب الرياض حالياً) إلى زمن ياقوت الحموى فى القرن السابع الهجرى. كان من فحول شعراء الإسلام، وكانت بينه وبين الشاعر الفرزدق صولات وجولات، ولكنه رثاه بعد مماته.

٤ – هو غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة التغلبى ويكنى أبو مالك ولد عام ١٩هـ الموافق عام ٦٤٠م، وهو شاعر عربى ينتمى إلى بنى تغلب، وكان نصرانياً، وقد مدح خلفاء بنى أمية بدمشق فى الشام، وأكثر فى مدحهم، وهو شاعر مصقول الألفاظ، حسن الديباجة، فى شعره إبداع. وهو أحد الثلاثة المتفق على أنهم أشعر أهل عصرهم: جرير والفرزدق والأخطل.

٥ – و هو من قوم الفرزدق.

السلام – وأن زيدا بن على لم يكن له خروج بخراسان[1]، وأن أبا يوسف ومحمد لم يصنفا فى النحو مثل كتابه سيبويه[2]، وأنه لم يظهر عنهما من الطب مثلما ظهر عن جالينوس[3]، إلى نظائر ما ذكرنا. أكثر من أن تعد وتحصى، ولم يتحصل لنا العلم بكل ما ذكرنا إلا من حيث علمنا أن شيئا من ذلك لو كان لنقل. ولو نقل العلم. فبأن بما ذكرنا، أن القرآن لم يعارض، لأنه لو كان عورض لنقل، ولو نقل لحصل لنا العلم.

فإن قيل: أن جميع ما استشهدتم به، قد وقع العلم بصحته، ولا ننكره، ولكن من أين وجب أن يكون حكم معارضة القرآن حكم ما استشهدتم به؟

قيل له: لأن ما ذكرنا من الطريقة أمر عام ليس يختص شيئا دون شئ، فيجب أن يكون جميع الطرق التى تتعلق بها الدواعى إلى نشرها وذكرها وتقوى البواعث عليها، جارية فى هذا الباب مجرى واحدا.

فإن قيل: فكأنكم تقولون: أن كل ما لم ينقل من الأحوال الماضية نقلا متواترا يجب القطع على أنه لم يكن، ولئن قلتم ذلك لزمكم أن تقطعوا على أنه لا معجز

---

١ – منطقة جغرافية واسعة. من الناحية التاريخية: يشمل إقليم "خراسان الإسلامي" شمال غرب أفغانستان (مثل مدينة هيرات) وأجزاء من جنوب تركمانستان، إضافة لمقاطعة خراسان الحالية فى إيران. من مدنه التاريخية: هراة و نيسابور و طوس (تعرف باسم مشهد اليوم) و بلخ و مرو.

٢ – أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر البصرى، المعروف بسيبَوَيه (بالفارسية: سيبوُيه أى: "رائحة التفاح") (١٤٠ هـ/ ٧٦٠ م-١٨٠ هـ/ ٧٩٦ م) إمام العربية وشيخ النحاة الذى إليه ينتهون، وله كتاب فى النحو يسمى "الكتاب" وهو أول كتاب منهجى ينسق ويدون قواعد اللغة العربية، «لم يكتب الناس فى النحو كتاباً مثله».. وسيبويه فارسى الأصل، ولد فى مدينة البيضاء قرب شيراز فى بلاد فارس، كان مولى بنى الحارث بن كعب، ثم مولى آل الربيع بن زياد الحرائى وقدم إلى البصرة غلاما، وقدا اختلف فى موعد قدومه تحديدا، ونشأ فيها وأخذ عن علمائها، وعلى رأسهم الخليل بن أحمد الفراهيدى. له وصف لمخارج حروف اللغة العربية هو الأدق حتى الآن.

٣ – جالينوس: هو كاتب وطبيب إغريقى شهير تخصص فى علم التشريح، أثرت دراساته وكتاباته تأثيرا كبيرا فى الطب الغربى لمدة ١٣٠٠ عام، ولد فى العام ١٣٠م وتوفى فى العام ٢٠٠م. ولد لأب وأم يونانيين فى مدينة بيرغاموم القديمة والمسمية حاليا برغاما فى تركيا.

للنبى – صلى الله عليه – إلا ما يكون الخبر به متواترا[1]، ويلزمكم القطع على أن كل خبر يروى عنه – صلى الله عليه – من طريق الآحاد[2]: كذب، لا أصل له. وهذا خلاف ما بين المسلمين، ويلزمكم فى أحوال الدنيا والمعاملات: أن كل مالا يتواتر الخبر به من المجوزات فهو مقطوع على أنه لم يكن، وفى هذا من الفساد مالا يخفى.

قيل له: نحن لا نقول أن كل مالا يتواتر الخبر به يجب القطع على أنه لم يكن على الإطلاق، وهذا لا يقوله محصل، وإنما نقول: إن الأمر إذا كان مما يكون وقوعه لو

---

١ - معنى التواتر التتابع، ومنه قول الله تبارك وتعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾ (المؤمنون: ٤٤)، والتواتر هو ما رواه جماعة يستحيل فى العادة أن يتواطؤا على الكذب. فالخبر المتواتر كالمعاين المسموع منه صلى الله عليه وسلم، وذلك لأنه يرويه قوم لا يحصى عددهم ولا يتوهم تواطؤهم على الكذب لكثرتهم وعدالتهم وتباين أماكنهم.

٢ - الآحاد هو ما لم يجمع شروط التواتر. فسواء كان الراوى واحداً أو اثنين أو ثلاثة أو أربعة أو غير ذلك من الأعداد التى لا يبلغ النقلة فى الكثرة حد التواتر فيحكم على الخبر بأنه خبر آحاد. وخبر الآحاد ظنى الثبوت ويفيد العلم النظرى الذى يتوقف على النظر والاستدلال، ولا يفيد العلم اليقينى، وهذا عند كثير من العلماء، ففيه المقبول والمردود وما يتوقف فيه.. ويرى بن حزم فى كتابه "الإحكام" أنه يفيد القطع لا الظن ويوجب العلم والعمل، حكى ذلك أيضاً رواية عن مالك: فإذا كان الحديث صحيحاً كان قطعى الثبوت ولو كان خبر آحاد. وقد اتفق جمهور المسلمين من الصحابة والتابعين وغيرهم على وجوب العمل بخبر الواحد وأنه حُجة ويفيد الظن، يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦]" والنبأ هو الخبر، وهو نكرة فى سياق الشرط فيعم كل خبر ويدخل فيه الخبر الذى يتعلق بالرسول – صلى الله عليه وسلم – وقد أوجب الله تعالى التثبت فيه لوجود الفسق، فإذا انتفى هذا السبب بأن كان المخبر ثقة عدلاً قُبل الخبر. يقول تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [القصص: ٢٠]". ففى هذه الآية قبل موسى خبر الناصح وزكى الله هذا العمل من موسى – عليه السلام – وقال تعالى: ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٖ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٢٥]"، وفى هذه الآية قبل موسى – عليه السلام – خبر المرأة. وعن عبد الله بن عمر – رضى الله عنه – قال: "بينا الناس بقباء فى صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد أُنزل عليه الليلة قرآن وقد أُمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوا، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة" (متفق عليه). وهنا صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قبلوا خبراً عظيماً من واحدٍ واستداروا إلى الكعبة.

وقع ظاهرا لا خفاء به، ثم كانت الدواعى إلى نشره قوية، والبواعث على ذكره شديدة، ما لم يعرض ما يوجب تغير حال الدواعى والبواعث، ومتى لم يكن له نقل يوجب العلم فيجب القطع على أنه لم يكن، وشيء مما ذكرتم لا يلزم على هذا – على ما نبينه – بأن كثيرا من معجزات رسول الله – صلى الله عليه – يجوز أن يكون ظهر للواحد، أو الاثنين، أو الثلاثة، دون العدد الكثير، ومثل هذا مما لا يصح أن يتواتر به الخبر.

وكثير من معجزاته – صلى الله عليه – وإن كانت ظهرت، بشهادة العدد الكثير، يجوز أن تقوى الدواعى إلى نشرها، والبواعث عليها تعويلا على غيرها، ويجوز أن تضعف الدواعى على نقلها على مر الأيام، لقيام غيرها مقامه، وان كانت الدواعى والبواعث فى أول الأمر قوية، وكل هذا يجوز أن يكون الأصل صحيحا، وإن لم يتواتر النقل به، وعلى هذه الطريقة يجرى الكلام فى أحوال الدنيا والمعاملات لأنا نجوز فى السلطان أن يفعل أفعالا كثيرة مما تخصه فلا تنقل نقلا متواترا. ولا يجوز أن يفعل فعلا يعم نفعه أو ضرره ظاهرا ذائعا، فلا يتواتر فى المدة بعد المدة إلى أن يعرض ما يوجب ضعف الدواعى والبواعث إلى نقله، ولهذا جاز أن تخفى كثيرا من معجزات الأنبياء المتقدمين – صلوات الله عليهم – لأن التكليف بمعرفتها زال، أو عرف حالهم من جهة نبى بعدهم، فضعفت الدواعى إلى نقله، وإذا ثبتت هذه الجملة، فان معارضة القرآن لو كانت ووقعت كان وقوعها على وجه يظهر للولى، المصدق برسول الله – صلى الله عليه- والعدو المكذب له، وكانت الدواعى إلى نقلها والبواعث على نشرها قوية مستمرة إلى يومنا هذا بل إلى آخر الدهر، لأن الإسلام ما بقى، والاحتجاج بالقرآن ما استمر، فيجب أن تكون الدواعى ثابتة حاصلة إلى نقل المعارضة، لأن المكذب به – صلى الله عليه – كان يذكرها احتجاجا والمصدق به يذكرها طالبا للكلام عليها، كما يذكر الخصم حجة خصمه أو شبهته الكلام عليها. وآخر كان يذكرها لفصاحتها ومزيتها كما يؤثر، ويحفظ كلام الفصحاء، وكانت الملحدة والباطنية من بينهم خصوصا يهتفون بها لما فى أنفسهم على رسول الله – صلى الله عليه.

فكل ما ذكرناه يوضح أنها لو كانت وقعت كان وقوعها معروفا، والدعاوى إلى نقلها تكون مستمرة، ومتى كان الأمر على ما وصفنا، ولم نجد النقل الذى ذكرنا، فيجب القطع على أنها لم تكن، كما نقول فى سائر ما جرى مجراه فى الظهور، وقلة الدواعى إلى نقله من أمور الدين والدنيا، وأحوال الملوك وسياساتهم.

ولمثل هذا نقول: أن ما تدعيه الإمامية[1] من النصوص، لا أصل لها، لأنها لو كانت لوجب أن يتواتر بها النقل، ويظهر.

ولخص بعض العلماء القول فى ذلك، فقال:" كل أمرين كانا فى زمان واحد، أو زمانين متقدمين، وكانت الدواعى إلى نقلها متساوية أو متقاربة، فلا يجوز أن يظهر أحدهما، ويظهر نقله، ويخفى الآخر، ويخفى نقله، لأنهما إذا اجتمعا فى السبب لموجب الظهور، فيجب اجتماعهما فى الظهور " قال:" وقد علمنا: أن القرآن لو كانت له معارضة من مشركى العرب كانت تكون فى الزمان المتقارب، وكانت الدواعى إلى نقلها كالدواعى إلى نقل القرآن وأقوى منه على ما أوضحناه، ولأن المعارضة لو كانت، لكانت هى الحجة دون القرآن وكان القرآن هو الشبهة، وكان ذلك مما يزيد فى قوة الدواعى إلى نقلها، وهذا بين واضح لمن تأمله بعين النصفة ".

على أن أحداً لا يدعى أن أحداً من العرب انتدب لمعارضة القرآن، فعارضه، أو عارض بعضه، فلا وجه لتطويل الكلام فى هذا الباب.

فإن قيل: ما أنكرتم أن يكون خوف السيف، وعلو كلمة الإسلام أوجب خفاء نقل المعارضة، أو منع ابتدائها.

قيل له: أما ابتداؤها والإتيان بها لو لم يتعذر عليهم كان لا يجوز أن يكون ما

---

١ - الإمامية اسم يطلق على طوائف من الشيعة تؤمن بأن إمامة المسلمين تأتى نصاً لكل إمام من إمام معصوم سابق له، فيخالفون بذلك طوائف أخرى ويسميهم خصومهم بالرافضة أو الروافض، إما لرفضهم إمامة زيد بن على، أو لرفضهم خلافة أبى بكر وعمر والإمامية جناحان كبيران فى عصرنا الحالى الشيعة الإثنى عشرية وهم يشكلون غالبية الشيعة اليوم الشيعة الإسماعيلية بجناحيها النزارية والمستعلية.

ذكرتم مانعا لهم منها لأن الأحوال كانت على خلاف ذلك، وسنشبع القول فيه، ونوضحه فى الفصل الذى نذكر فيه: أن كفهم عن المعارضة لم يكن إلا للتعذر، وأما النقل فلا يجوز أن يخفى لما ذكرتم. ألا ترى أن عامة الأحوال مع قوة جملة الإسلام، وظهور أمره لم يسلم من أن يكون فيها من كان يطعن على النبى – صلى الله عليه وعلى آله – ويروم القدح فى الإسلام.

فهذا يزيد بن معاوية – لعنه الله – لما حمل إليه رأس الحسين ابن علي[1] – صلوات الله عليه – جعل يقول:[2]

---

١ – الحسين بن على (٤ هـ وقيل بعدها ـ ٦١ هـ) هو الحسين بن على بن أبى طالب، أبو عبد الله، الهاشمى، سبط رسول الله صلى الله علية وسلم وريحانته من الدنيا وأحمد سيدى شباب أهل الجنة. ولد بالمدينة وكانت إقامته بها إلى أن خرج مع أبيه إلى الكوفة، فشهد معه الجمل ثم مع أخيه إلى أن سلم الأمر إلى معاوية فتحول مع أخيه إلى المدينة. روى عن جده وأبيه وأمه وخاله هند بن أبى هالة وعمر بن الخطاب. روى عنه أخوه الحسن وبنوه على زين العابدين وفاطمة وحفيدة الباقر والشعبى وآخرون. أخرج له أصحاب السنن أحاديث يسيرة. كان فاضلاً عابداً. قتل بالعراق بعد خروجه أيام يزيد بن معاوية.
[الإصابة١/ ٣٣٢؛وأسد الغابة٢/ ١٨؛ وتهذيب التهذيب ٢/ ٣٤٥، صفة الصفوة ١/ ٣٢١، وال'لام الزركلي٢/ ٢٦٣].

٢ – يروى أن يزيد دمعت عيناه لما حُمل إليه رأس الحسين وقال لحامله: لقد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين. لعن الله ابن عبيد الله. أما والله لو أنى صاحبه لعفوت عنه، فرحم الله الحسين. أما والله يا حسين لو أنا صاحبك ما قتلتك، ثم دعا بعلى الصغير بن الحسين ونسائه، فأدخلوه عليه وعنده أشراف الشام. فقال لعلى: أبوك الذى قطع رحمى وجهل حقى، ونازعنى سلطانى، فصنع الله به ما رأيت. ثم أمر بإنزالهم فى داره وأمر لهم بما يصلحهم، وكان لا يأكل إلا وعلى معه. ثم أمر النعمان بن بشير أن يجهزهم بما يصلحهم ويسيرهم إلى المدينة مع أناس صالحين. ولما أرادوا الخروج دعا علياً فودعه وقال له: لعن الله ابن مرجانة أما والله لو أنى صاحبه ما سألنى خصلة إلا أعطيتها إياه، ولدفعت عنه الحتف بكل ما استطعت، ولو بذلت بعض ولدى، ولكن الله قضى ما رأيت، فكاتبنى، وانه إلّى كل حاجة تكون لك. ويروى ابن قتيبة أنه لما أدخلوا عليه رأس الحسين وأهله بكى حتى كادت نفسه تفيض. وبكى معه أهل الشام حتى علت أصواتهم. يروى المسعودى أن ابن زياد قال لقاتل الحسين: أنه كان خير الناس أما وأبا، وخير عباد الله، فلم قتلته ؟ ثم أمر بضرب عنقه (مروج الذهب ج٣: ١٤١) وذكر الطبرى أنه لما دخل على ابن زياد عشاء آل الحسين، أمر لهم بمنزل وأجرى عليهم رزقاً وأمر لهم بنفقة وكسوة ثم سيرهم إلى يزيد.
وهذا يجعل الروايات الواردة فى حسن معاملة عبيد الله ابن زياد، ثم يزيد لابن الحسين الصغير وبناته ونسائه واستياء يزيد لقتله، وبكائه عليه ومشاركة أهله نساء ورجالا فى ذلك أصح من تلك التى تذكر قسوتها وجفائها إزائهم، ولا سيما أنه لم يكن هناك قتال شديد يثير نقمة وانفعالاً يمتد أثرهما إلى النساء والأطفال. وكان ما وقع على غير إرادتهم بل وعلى مضض منهم.

ولعل من الدلائل على ذلك ما رواه الطبرى وابن قتيبة معاً من استمرار الصلات الحسنة، والمكاتبات بين يزيد وعلى ابن الحسين، وما كان من موقف هذا إبان ثورة المدينة حيث رووا أنه لا على ولا أقاربه اشتركوا فى هذه الحركة. وأن يزيد وصى قائد جيشه وأمره بأن يدنى مجلسه وأن يبلغه أنه وصل إليه كتابه، وأن هؤلاء الخبثاء شغلوه عنه، وأن القائد رحب به وأجلسه على السرير وبلغه رسالة يزيد (تاريخ الطبرى ج ٤: ٣٧٩).

فأين هذه المعاملة الحسنة من افتراء المفترين من سبى أهل البيت وحملهم على الجمال بعد استشهاد الحسين ؟! فهذا من الكذب الواضح، ما استحلت أمة محمد – صلى الله عليه وسلم – سبى هاشمية، وإنما قاتلوا الحسين خوفاً منه ومن أن يزيل عنهم الملك. فلما استشهد فرغ الأمر وبعث بآله إلى المدينة. ولكن جهل الرافضة إليه المنتهى. ولا ريب أن قتل الحسين من أعظم الذنوب، وفاعله والراضى به مستحق للعذاب، ولكن ليس قتله بأعظم من قتل أبيه، ولا قتل زوج أخته عمر، وقتل زوج خالته عثمان.

والغريب أن هؤلاء المغرضين من أهل الكوفة الذين دعوا الحسين لتوليته هم الذين خذلوه وتخلوا عن نصرته، وتسببوا بقتله ثم خرجوا يبكون عليه.

وختاماً لهذا الموضوع الخطير نقول كما قال المؤرخ المحقق "دروزة": ونشهد الله على أننا لم نكتب ما كتبناه عن هوى أو بغض للحسين – رضى الله عنه – وعلى أننا نكن لهم أشد الاحترام والمحبة لصلتهم الشريفة برسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولكننا لا يسعنا أن نكتب غير ذلك إذا أردنا أن نلتزم المنطق والإنصاف والحق ؛ لأن الروايات التى تطمئن بها النفس لا تسمح بغيره. ولم ننفرد بهذه النتائج التى استنتجناها من الروايات. فهناك كثيرون غيرنا يشاركوننا فيها، بل وإنه ليشاركنا فيها كل منصف متجرد عن الهوى من المسلمين على اختلاف طوائفهم. ونورد هنا قولين فى ذلك أحدهما للإمام ابن تيمية، والثانى للمؤرخ المحقق الشيخ محمد الخضرى رحمهما الله.

وقد أورد الإمام ابن تيمية خبر ما تلقاه الحسين من نصائح كثيرة بعدم الخروج والتحذير من العواقب ثم قال: إنه لم يكن فى الخروج مصلحة لا فى دين ولا دنيا. وكان فى خروجه وقتله من الفساد ما لم يحصل لو قعد فى بلده. فإن ما قصده من تحصيل الخير ودفع الشر لم يحصل منه شيء بل زاد الشر بخروجه وقتله، ونقص الخير بذلك، وصار سبباً لشر عظيم، وكان قتل الحسين مما أوجب الفتن (أنظر المنتقى من منهاج السنة ص ٢٨٧-٢٨٨)، أما الشيخ الخضرى فإنه عقب على حادث قتل الحسين قائلاً: وعلى الجملة أن الحسين أخطأ خطأ عظيماً فى خروجه هذا الذى جر على الأمة وبال الفرقة والاختلاف وزعزع عماد ألفتها إلى يومنا هذا. وقد أكثر الناس من الكتابة فى هذه الحادثة لا يريدون بذلك إلا أن تشتعل النيران فى القلوب، فيشتد تباعدها. وغاية ما فى الأمر أن الرجل طلب أمراً لم يتهيأ له ولم يعد له عدته، فحيل بينه وبين ما يشتهى وقتل دونه. وقبل ذلك قتل أبوه فلم يجد من أقلام الكاتبين من يبشع أمر قتله، ويزيدون نار العداوة تأججاً. والحسين قد خالف يزيد، وقد بايعه الناس، ولم يظهر عنه ذلك الجور ولا العسف عند إظهار الخلاف حتى يكون فى الخروج مصلحة للأمة (محاضرات الخضرى: تاريخ الأمم الإسلامية ح ٢: ٢٣٥).

أنظر بتوسع العواصم من القواصم للقاضى أبى بكر بن العربى المالكى، بتحقيق محمود مهدى الاستانبولى ومحب الدين الخطيب.

لأهلـــوا، واســـتهللوا فـــرحا ولقالـــوا: يـــا يـــزيد، لا شـــلل

لـــست مـــن عتـــبة أن لم أنـــتقم مـــن نبـــى أحمـــد مـــا كـــان فعـــل

فمن لا يتحاشى أن يقول ذلك، أى مانع يكون فى زمانه من نقل معارضته القرآن، وهو السلطان المنتصب للخلافة[1]؟

ثم الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان[2] على ما روى يظن فى أيام خلافته فى المصحف، وقيل حرقه، ثم أنشأ يقول:

أتـــوعد كـــل جـــبار عنـــيد فهـــل أنـــا ذاك جـــبار عنـــيد ؟

إذا مـــا جـــئت ربـــك يـــوم حـــشر فقـــل: يـــا رب حرقنـــى الوليـــد

وهو القائل:

تلعـــب بالـــبريد هاشمـــى بـــلا وحـــى أتـــاه ولا كـــتاب

---

١ - الخلافة: يعرفها الماوردى " خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا.
والهدف منها هو إقامة الدين والالتزام بأحكامه سواء ما اتصل منها بأمور الدين المتعلقة بالعقيدة والعبادة ، أو تلك الأحكام المتعلقة بحياة الناس ومعاملاتهم

٢ - هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان و كان يلقب أبو العباس (٧٠٦ - ٧٤٤ م). حكم سنة موادة من ٧٤٣ إلى ٧٤٤ م. أمه بنت محمد بن يوسف الثقفى أخى الحجاج. تولى الخلافة بعد وفاة عمه هشام بن عبد الملك كان من فتيان بنى أمية وظرفائهم وشجعانهم وأجوادهم، وكان يعاب عليه الانهماك فى اللهو وسماع الغناء. له شعر رقيق وعلم بالموسيقى، وكان يضرب بالعود ويوقع بالطبل ويمشى بالدف على مذهب أهل الحجاز. ساءت القالة فيه، كثير من الناس نفوا عنه ذلك وقالوا إنها شائعات أشاعها الأعداء وألصقوها به. نقم الناس عليه حبه للهو. قال الذهبى:لم يصح عن الوليد كفر ولا زندقة بل اشتهر بالخمر والتلوط. فخرجوا عليه لذلك فبايعوا سرا ليزيد بن الوليد بن عبد الملك فنادى بخلع الوليد، وكان غائبا عن دمشق ففاجأه النبأ، وقصده جمع من أصحاب يزيد وعلى رأسهم محمد بن خالد القسرى البجلى فقتلوه فى قصر النعمان بن بشير بالبخراء، وكان قد لجأ إليه وحمل رأسه إلى دمشق فنصب بالجامع، وعرضت رأسه على أخيه سليمان بن يزيد فقال: بعداً له أشهد أنه كان شروباً للخمر ماجناً فاساقاً ولقد راودنى على نفسى وكان الوليد أمر بالقبض على خالد بن عبد الله القسرى البجلى وتعذيبه حتى مات، فكان توجه ابنه محمد على رأس الجماعة التى قتلت الوليد، إنما كان انتقاما لوالده (خالد القسري) وأخذا بثأره. مات الوليد وعمره ٣٨ سنة ومدة حكمه سنة واحدة.

فكيف يظن بأن نقل المعارضة للقرآن يخفى فى زمانه، أو كان يقع الكف عنها، لولا التعذر، ثم كان فى آخر أيام بنى أمية[1]، وأول أيام بنى العباس[2]، مثل ابن المقفع[3] الذى تهوس: وأوهم الأغمار أنه ممن يعارض القرآن، ولم يتحاش ذلك.

---

١ - الخلافة الأموية: (٤٠-١٣٢ هـ/ ٦٦١-٧٥٠ م) : بعد الصراع بين على ومعاوية رضى الله عنهما واستشهاد على تنازل الحسن بن على رضى الله عنهما عن الخلافة، وأسس الخلافة الأموية، وكان له جملة من الإصلاحات الإدارية منها: أنه نظم البريد، والشرطة، وأقام ونظّم ديوان الخاتم، وغير ذلك من الإصلاحات، فكان أول من وضع أساس الإدارة المتقدمة للدولة الإسلامية الموحدة وتنسب إلى بنى أمية وقد أقام الأمويون خلافتين سنيتين إحداهما فى المشرق وعدد خلفائها ثلاثة عشر، وكان قيام الخلافة سنة إحدى وأربعين للهجرة الموافق لسنة إحدى وستين وستمائة للميلاد، وكان سقوطها على أيدى بنى العباس سنة إثنتين وثلاثين ومائة للهجرة، الموافق لسنة تسع وأربعين وسبعمائة للميلاد، أما الخلافة الثانية فكانت فى بلاد الأندلس.

٢ - الخلافة العباسية (١٣٢-٦٥٦ هـ/ ٧٥٠-١٢٥٩ م)-Abasid Caliph (١٣٢-٦٥٦ A.H./٧٥٠-١٢٥٩ A.D.)

يرجع أصل العباسيين إلى العباس بن عبد المطلب عم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، فهم بذلك من أهل البيت. بمساعدة من أنصار الدعوة العلوية إستطاع أبو العباس السفاح (٧٤٩-٧٥٤) و بطريقة دموية القضاء على الأمويين و مظاهر سلطتهم، قام هو و أخوه أبو جعفر المنصور (٧٥٤-٧٧٥) باتخاذ تدابير صارمة لتقوية السلطة العباسية، فى عام ٧٦٢ تم إنشاء مدينة بغداد. بلغت قوة الدولة أوجها و عرفت العلوم عصر إزدهار فى عهد هارون الرشيد (٧٨٦-٨٠٩) الذى تولت وزارته أسرة البرامكة (حتى سنة ٨٠٣) ثم فى عهد ابنه عبد الله المأمون (٨١٣-٨٣٣) الذى جعل من بغداد مركزاً للعلوم و رفع من مكانة المذهب المعتزلى حتى جعله مذهباً رسمياً للدولة.ويعد العصر العباسى الأول العصر الذهبى لبنى العباس، فقد سيطر الخلفاء العباسيون خلاله على مقاليد السلطة، ورغم ظهور بعض الدول المستقلة وأهمها الدولة الأموية بالأندلس ودولة الأدارسة بالمغرب والدولة الرستمية فى الجزائر ودولة الأغالبة فى تونس، إلا أن الدولة ظلت متماسكة حتى نهاية هذا العصر. ثم بدأت فى الضعف حتى سقطت على ايدى المغول ٤ من صفر ٦٥٦ هـ= ١٠ فبراير ١٢٥٨م وانتقلت الى القاهرة وظلت خلافة اسمية هناك الى أن سقطت على يد العثمانيين بعد دخولهم مصر ١٥١٧ م

٣ - أبو محمد عبد الله المعروف بابن المقفع،(٧٢٤ ـ ٧٥٩ م) مؤلف وكاتب من البصرة تقول بعض المصادر أن والده كان من أصل فارسى مجوسى لقب أبوه بالمقفع لأنه اتهم بالاختلاس لمال الخراج، فضرب على يده فتشنجت، أمر المنصور بقتله لأسباب سياسية، وكان الوالى يكره فأمر بقتله.رافق الأزمات السياسية فى زمن الدولتين الأموية والعباسية درس الفارسية وتعلّم العربية فى كتب الأدباء واشترك فى سوق المربد. نقل من البهلوية إلى العربية كليلة ودمنة. وله فى الكتب المنقولة التى وصلت إلينا الأدب الكبير والصغير والأدب الكبير فيه كلام عن السلطان وعلاقته بالسلطان وعلاقته بالرعية وعلاقة الرعية به والأدب الصغير حول تهذيب النفس وترويضها على الأعمال الصالحة من أعماله مقدمة كليلة ودمنة.

وفى أيام المأمون[1] ظهر الإلحاد، وظهر الكلام فى نصرة "المانوية"[2] و "الديصانية"[3] وبالأخيرة صنف " الدامغ " فى " مطاعن القرآن " واختلف فى مصنفه.

وصنف ابن الروندى "الفريد" فى الطعن على نبوة نبينا – صلى الله عليه – والقدح فى معجزاته، غير خائف ولا متحاش.

وصنف " التاج" فى قدم العالم، و "الزمرد" فى إبطال النبوات، وإذا كانت الأحوال على ما وصفنا، فكيف يظن: أن معارضة القرآن لو كانت يخفى نقلها، سيما فى زماننا هذا، والباطنية[4] قد اتسعت أحوالهم، وكثر بذلهم الأموال على الاستدعاء

---

١ - عبد الله المأمون بن هارون الرشيد. ولد عام ١٧٠هـ فى الليلة التى مات فيها الهادى واستخلف أبوه وتوفى عام ٢١٨هـ. فترة الخلافة بالهجرى: ١٩٨ -٢١٨. فترة الخلافة بالميلادى: ٨١٣ -٨٣٣.

٢ - المانوية -أو المنانية كما ذكر ابن النديم فى الفهرست - ديانة تنسب إلى مانى بن فتك المولود فى عام ٢١٦ م فى بابل. وقيل أن الوحى أتاه وهو فى الثانية عشر من عمره حاول مانى إقامة صلة بين ديانته والديانة المسيحية وكذلك البوذية والزرادشتية، ولذلك فهو يعتبر كلاً من بوذا وزرادشت ويسوع أسلافاً له، وقد كتب مانى عدة كتب من بينها إنجيله الذى أراده أن يكون نظيرا لإنجيل عيسى. أتباع المانوية هم من تعارف عليهم أولا بإطلاق لقب الزنادقة.

٣ - نسبة إلى أبى شاكر الديصانى، وهى من فروع الثنوية بوالديصانية بكسر الدال المهملة وسكون المثناة التحتية وتخفيف الصاد قوم يقولون بالنور والظلمة كالمانية إلا أن المانية يقولون النور والظلمة حيان والديصانة يقولون النور حى والظلمة ميت.

٤ - يقول البغدادى فى الفرق بين الفرق (٣٨٢): " اعلموا أسعدكم الله أن ضرر الباطنية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس عليهم، بل وأعظم من الدهرية وسائر أصناف الكفرة عليهم"، فالباطنية ليست مذهبا إسلاميا أو فرقة من فرق أهل الإسلام، وإنما هى مذهب وطريقة أراد بها واضعوها هدم الإسلام وإبطاله عقيدة وشريعة، كما ذكر ذلك الإمام الغزالى فى كتابه "فضائح الباطنية". اختلف الباحثون فى تحديد زمن ظهور مذهب الباطنية وهو خلاف مبرر، إذ من أصول مذهبهم عدم نشر عقائدهم وأفكارهم، فهم يأخذون العهود والمواثيق على من يدخل فى مذهبهم ألا يظهر شيئا منها، ويعدون ذلك من أصول دينهم وأركانه التى لا يجوز الإخلال بها، ويرى الإمام السيوطى أن أول ظهور للباطنية كان فى سنة اثنتين وتسعين للهجرة، وذهب البعض إلى أن ظهورهم كان سنة ٢٠٥هـ وقال آخرون سنة ٢٥٠، ويرى البعض أن ظهور مذهب الباطنية كان سنة ٢٧٦هـ حينما قام زعيمهم ميمون القداح بإنشاء هذا المذهب ولقبوا به لدعواهم أن لظواهر القرآن وأخبار النبى صلى الله عليه وسلم بواطن تجرى فى الظواهر مجرى اللب من القشر، وتلك البواطن رموز وإشارات إلى حقائق معينة، وأن من تقاعس عقله عن الغوص فى الخفايا والأسرار والبواطن، أبتلى بالأغلال والآصار التى يعنون بها التكليفات الشرعية، التى تنحل عمن ارتقى إلى علم الباطن فيستريح من أعبائه.

إلى ما هم عليه من الجحد للتوحيد والنبوات، فلو وجدوا سبيلا إلى ذلك لحصلوه بما لهم من طارف أو تليد.

وبمثل هذه الطريقة: يتبين أن معارضة القرآن لو كانت ممكنة فى شئ من الأعصار التى هى بيننا وبين النبى – صلى ا لله عليه وآله – لأتى بها، ولم يكن دونها مانع و لا حاجز.

فإن قيل: فقد حكى عن مسيلمة[1]، وطليحة الأسدى[2]، وبالأخير عن ابن المقفع: فصول عدة أدعى أنها معارضة للقرآن فما قولكم فيه ؟

قيل له: أول ما فى هذا أنه مما يدل على أن المعارضة للقرآن لم تقع، لأنها لو وقعت لنقلت، كما نقلت هذه الفصول التى ذكرتها، ولم يمنع منها مانع، كما لم يمنع من نقل هذه الفصول مع ما فيها من الركاكة والسخافة فى النظم[3] والوضع.

---

١ – مسيلمة الكذاب: هو أبو ثمامة مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب الحنفى الوائلى، ولد ونشأ باليمامة فى القرية المسماة اليوم (الجبيلة) قرب العيينة بوادى حنيفة فى نجد، وفد على النبى – صلى الله عليه وسلم – مع قومه بنى حنيفة عام ٩ هـ فأسلم مترددا، ولما عاد ارتد وادّعى النبوة وأبطل جميع فرائض الإسلام، وتفى النبى – صلى الله عليه وسلم – قبل القضاء على فتنته فانتدب له أبو بكر رضى الله عنه خالد بن الوليد سنة ١٢ هـ فهاجم ديار بنى حنيفة فصمدوا له حتى استشهد من المسلمين ١٢٠٠ منهم ٤٥٠ صحابياً، ثم انتهت المعركة بمقتل مسيلمة الذى صار مضرب المثل فى الكذب (الأعلام ٧: ٢٢٦).

٢ – طليحة بن خويلد الأسدى من قادة حروب الردة بعد وفاة النبى محمد سنة ١١ هـ (٦٣٢ م). ادّعى النبوة فى قومه بنى أسد وتبعه بعض طيء وغطفان فى أرض نجد، إلا أنه هزم مع أتباعه على يد خالد بن الوليد فى معركة بزاخة ودخل الإسلام على إثر ذلك. شارك طليحة فى الفتوحات وقتل فى معركة نهاوند سنة ٢١ هـ (٦٤٢ م).

٣ – على العكس من ذلك تجد إحكام النظم وتناسبه فى القرآن الكريم، حيث يتناسب صدر الآية مع ختامها، وتتسق الآية مع سابقتها ولاحقتها، وتتناسب الكلمات مع حروفها فى المقام الذى سيقت فيه حسب موقعها ودلالتها كأنما فُصلت لذلك تفصيلاً، بل سيقت له على قدر يستدعيه المقام ويقتضيه المعنى ؛ هادئة فى موضع التعقل، رقيقة فى معرض اللين، قوية عند الشدة، حانية عند الرحمة، مناسبة فى التذكير، رقراقة فى التبشير.. مع حسن السبك فى جميعها. قف معنا عند قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ۝ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]" ثم ابحث معنا عن مرجعية الضمير فى (عليها). علام ؟.. لا شك أنها الأرض.. فأين هى ؟

وجملة الكلام فى هذا: أنها تنقسم قسمين: إما أن تكون كلاما مسترذلا لا ينحط عن كلام المتوسطين، فى العربية من أهل هذا العصر والأعصار التى كانت قبله. فكيف أن تبلغ مرتبة كلام فصحائهم ما جرى هذا المجرى. لا يخيل على أحد أنه ليس يجوز أن يظن به أنه معارض للقرآن، كما لا يجوز أن يظن أن أشعار الحبر الوردى تصلح أن تكون معارضة لأشعار امرئ القيس[1]، والنابغة[2] أو الأعشى[3]، أو يكون المورد له أخذ ألفاظ القرآن فقدم منها البعض، وأخر البعض وزاد فيها ونقص منها. ومثل هذا لا يعد معارضة، لأنه لو عد معارضة لكان لا يتعذر على المفحم إذا عرف وزن الشعر أن يعارض ديوان امرئ القيس وسائر الشعراء الفحول من القدماء والمحدثين – على ما نبينه من بعد – ونحن نذكر تلك الفصول ونبين صحة ما قلناه:

إن المذكور قبلها: الجوارى.. أى السفن.. فلماذا لم تذكر الأرض ؟ هل تعرف لماذا ؟ لأنها هى نفسها جارية.. إنها تجرى فى فلكها، فى فضاء السماء الدنيا، ولكنا لا ندرك ذلك لأننا فى داخلها.. إنها تجرى بنا كما تجرى السيارة بمقاعدها الداخلية فلا يتجاوز مقعد مقعدا، ولا يختلف موضع إنسان عن آخر فى داخلها.. ولولا جريانها ما جرى ليل وراء نهار، ولا نهار وراء ليل "يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً " لأنهما يجريان معها جرى الثوب مع صاحبه. أرأيت كيف تعانقت الآيتان ؟ وكيف تناسبت السابقة مع اللاحقة ؟ وكيف تناسبتا فى سياق الامتنان ؟.. ثم انظر كيف تناسب ذلك المعنى مع الامتنان بالعلم فى صدر السورة: "الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ" وكيف تناسب مع ختامها: "تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ " بل انظر كيف تناسب قول: "الرحمن" فى مستهل السورة مع ختام السورة قبلها: "مليك مقتدر" لتعرف أن المليك المقتدر هو الرحمن.. فتأمل كيف تعانقت السورتان..!

١ – هو امرؤ القيس بن حُجر بن الحارس الكندى من بنى آكل المُرار، يمانى الأصل ينتهى نسبه إلى قحطان، ولد بنجد أو بمخلاف السكاسك باليمن حوالى عام ١٣٠ ق. هـ، اشتهر بلقبه واختلف فى اسمه. وهو أشعر شعراء العرب على الإطلاق، مات فى أنقرة عام ٨٠ ق. هـ (الأعلام ٢: ١١).

٢ – هو أمامة (ثمامة) زياد بن معاوية بن ضباب الذبيانى الغطفانى المضرى، شاعر جاهلى من الطبقة الأولى من أهل الحجاز، وهو من أصحاب المعلقات. وقد عمّر النابغة طويلاً وكانت وفاته عام ١٨ ق. هـ (الأعلام ٣: ٥٥).

٣ – هو الأعشى الكبير أبو بصير ميمون بن قيس بن جندل بن شراحيل، ينتهى نسبه لنزار، يعرف بأعشى قيس ؛ لأنه من بنى قيس بن ثعلبة الوائلى، ويقال له أعشى بكر بن وائل، مولده ووفاته بمنفوحة بالرياض، وهو من شعراء الطبقة الأولى فى الجاهلية وأحد أصحاب المعلقات، أدرك الإسلام ولم يُسلم، وقيل كان نصرانياً، وكانت وفاته سنة ٧ هـ (الأعلام ٧: ٣٤٢).

فمن ذلك ما حكى عن مسيلمة الكذاب أنه قال: " والليل الأطخم، والديب الأدلم، والجزع الأزلم، ما هتكت أسيد من محرم " وقال: " والليل الدامس، والذئب الهامس، ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس " وكان يقول: " والشاء وألوانها، وأعجبها السود، وألبانها والشاة السوداء، واللبن الأبيض،أنه لعجب محض، وقد حرم المذق، فما لكم لا تجمعون " وقال: " ضفدع بنت ضفدعين، نقى ما تنقين، أعلاك فى الماء، وأسفلك فى الطين، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدرين. لنا نصف الأرض، ولقريش نصفها، ولكن قريشا قوم يعتدون ".

وقال: "والمدريات ذرعا، والحاصدات حصدا، والذاريات قمحا، والطاحنات طحنا، والخابزات خبزا، والثاردات ثردا، واللاقمات لقما، أهالة وسمنا، لقد فضلتم على الوبر، وما سبقكم أهل المدر، ربعكم فامنعوه، والمعتر فأووه،والباغى فناوؤه ".

وهذه الفصول أبين سخافة، وأظهر ركاكة من أن يحتاج إلى ذكرها فى كتابنا هذا، على أنها ليست مما فيه شبهة على أحد سمعها، لكنا ذكرناها ليتعجب منها المتعجب، وليعلم أنه لو كانت للقرآن معارضة فى الحقيقة لنقلت، كما نقل هذا الكلام السخيف الذى لو أراد بعض المتعلمين الذين تكون بضاعتهم فى اللغة مزجاة، إيراد أسجاع فى هذا المعنى لم يرض لنفسه بمثل هذا.

والرجل – أعنى مسيلمة – وإن كان كذابا وقحا، فإنه كان رجلا من العرب، ولم يبلغ به جهله إلى أن يدعى أنه يعارض بمثل هذا الكلام القرآن، لأنه لو فعل ذلك كان يفتضح بين قومه، وهو لم يوردها على أنها معارضة، وإنما كان يوردها على أنها منزلة عليه، وليس كل ما يقصد أن يدعى فيه أنه منزل من عند الله يمكن أن يقال فيه: أنه معارضة للقرآن، لأنا لا ندعى إعجاز القرآن من حيث أنه منزل من عندا لله تعالى فقط، بل لأوصاف أخر تخصه، ألا ترى أنه لا شك أن التوراة والإنجيل والزبور كانت منزلة من عند الله، وان لم يثبت فيها الإعجاز.

ومن كلام هذا المهرص الكذاب: " ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى " وحكى " لقد من الله على الحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق وحشا، وأحل لها الزنا

". وهذا الكلام، وان كان سخيفا، فإنه أسف مما تقدم من كلامه، والعلة فيه: أنه أدخل فيه شيئا من ألفاظ القرآن، لأنه أخذ الابتداء من قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ [1] فجعل "الحبلى" مكان "أصحاب الفيل" وكذلك فيما حكى من قوله: " لقد من الله على الحبلى " أخذه من قول الله عز وجل: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [2] فجعل " الحبلى " مكان " المؤمنين " وقوله: " أخرج منها نسمة تسعى " من ألفاظ القرآن إلا قوله: " نسمة " فاكتسى هذا الفصل ضربا من الزبرج[3]، لما فيه من ألفاظ القرآن.

واعلم أن الشاعر يدخل لفظة من القرآن فى بيت من الشعر، أو يدخلها الكاتب فى فصل من كتابه، والمحاور فى فصله من محاورته، فيكتسب ذلك البيت، وذلك الفصل من العذوبة والرونق ما يصيره غرة فى سائره، وهذا من عجيب ما اختص به القرآن وفيه دلالة واضحة: أنه مباين لكلام البشر – والحمد لله.

وقد رأيت بعض من كان يتعاطى الفصاحة، ويدعى البلاغة من أهل عصرنا هذا يعجب بفصل يحكيه عن طليحة الأسدى، وهو:

"ما يفعل الله بتعفير خدودكم، وفتح أدباركم،أذكروا الله أعفة قياما " وكان يقول: ما هذا بكلام رذل، وكان يوشح به ما كتب، أقدره أنه منطوى عليه.

وهذا الفصل إنما صار له يسير من الرونق، لأنه أدخل فيه شيئا من ألفاظ القرآن، لأن الله تعالى يقول: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ ﴾[4] فأخذ هو أخذا " أذكروا الله أعفة " من قوله تعالى: ﴿ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا ﴾[5] ومن قوله تعالى: ﴿ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾[6].

---

١ – الفيل: ١

٢ – آل عمران: ١٦٤

٣ – الزبرج، بالكسر: الزينة، من وشى أو جوهر ونحو ذلك؛ هذا نص الجوهرى. وقال غيره: الزبرج الوشى. والزبرج: زينة السلاح. وفى حديث على، رضى الله عنه: حليت الدنيا فى أعينهم وراقهم زبرجها زبرج الدنيا: غرورها وزينتها. والزبرج: النقش. و الزبرج: الذهب

٤ – النساء: ١٤٧

٥ – آل عمران: ١٩١

٦ – الأحزاب: ٤١

على أن هذا القدر، وبأضعافه لا يمكن أن يعرف حال الكلام، وحال المتكلم، كما أن بالبيت الواحد، وبالبيتين لا يمكن أن يعرف حال الشاعر، وبالفصل الواحد وبالفصلين وبالثلاثة لا يمكن أن يعرف حال الكاتب والكتابة، وإنما يمكن أن يعرف ذلك إذا امتد نفس الكلام،وظهر التصرف فيه، ولهذا نقول: أن بهذا القدر من القرآن لا يمكن أن يعرف إعجازه ؛ لأن هذا القدر وأضعافه قد يتفق فيه ما لا يمكن لصاحبه الاستمرار عليه.

فأما ما ذكر عن ابن المقفع فى هذا الباب فهو أكثر، ونحن نذكر طرفا منه وننبه به على نمطه، فإنى رأيت كثيرا من الجهال يدخلون به الشبه على أنفسهم، فمن ذلك: " وأما الذين يزعمون: أن الشك فى غير ما يفعلون، وتنتهى الثقة إلى ما يقولون، أولئك ممن غضب عليهم ربهم، إنه خبير بما يعملون، الذين اتخذوا من دونى نصيرا، أولئك لا يجدون وليا ولا هم ينصرون، ومنهم من يتخذ أندادا من دون الله رجما بالغيب، أولئك وراءهم شر ما يظنون ".

فانظروا – رحمكم الله – إلى صفاقة هذا الإنسان، كيف جاء إلى ألفاظ القرآن، فحرفها عن مواضعها، وأوهم أنها من كلامه، فأفسد وضعه ونظمه، وما أشبهه، إلا بما حكى لى بعض أهل الأدب أنه أنشد قول المتنبئ[1]:

بقـائى شـاء ليـس هـم ارتـحالا وحسن الصبر زمـوا، لا، الجمالا

فقال: أخذ قول أبى تمام، فنسخه، وفسخه، ومسخه، يعنى قوله:

---

١ – أبو الطيب أحمد المتنبى، شاعر حكيم، وأحد مفاخر الأدب العربى، له الأمثال السائرة والحكم البالغة المعانى المبتكرة. فى شعره اعتزاز بالعروبة، وتشاؤم وافتخار بنفسه. و تدور معظم قصائده حول مدح الملوك. ترك تراثاً عظيماً من الشعر، يضم ٣٢٦ قصيدة، تمثل عنواناً لسيرة حياته، صور فيها الحياة فى القرن الرابع الهجرى أوضح تصوير. قال الشعر صبياً. فنظم أول أشعاره و عمره ٩ سنوات. اشتهر بحدة الذكاء واجتهاده وظهرت موهبته الشعرية باكرا وأبو الطيب كنيته أما لقبه فهو المتنبى واسمه أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفى الكوفى الكندى ولد سنة ٣٠٣ هـ الموافق ٩١٥ م بـ الكوفة فى محلة تسمى كندة (وهم ملوك يمنيون) التى انتسب إليها وقضى طفولته فيها (٣٠٤-٣٠٨ هـ الموافق ٩١٦-٩٢٠م). قتله فاتك بن أبى جهل الأسدى غربى بغداد سنة ٣٥٤ هـ الموافق ٩٦٥ م.

قالوا: الرحيل . فما شككت بأنه نفسى عن الدنيا تريد رحيلا

فأبلغت الحكاية المتنبئ، فقال: هلا وهبه لقولى:

وحسن الصبر زموا والجمالا ؟

وابن المقفع أسوأ حالا من المتنبئ: لأنه ليس لكلامه من الحسنات ما يوهب له السيئات. فتأملوا رحمكم الله كيف جاء إلى ألفاظ القرآن، لأن " غضب عليهم" من ألفاظ القرآن، وأنه " خبير بما يعملون " من ألفاظ القرآن، وكذلك قوله: " أولئك لا يجدون وليا ولا هم ينصرون " كله من ألفاظ القرآن، إلا أنه حرف وغير وأفسد اللفظ وسلبه حسنه بتغيير النظم، وكذلك قوله: " ومنهم من يتخذ من دون الله أندادا رجما بالغيب أولئك وراءهم " كل ذلك من ألفاظ القرآن. وليس له من الزيادة فى هذا ألا قوله فى أوله: " يزعمون أن الشك فى غير ما يفعلون " وهذا كلام مستدل من ألفاظ العامة والسوقة، لأن إرادتهم نفو الشك عما كانوا يفعلون، فلم يصرح به، وإنما أثبته فى غير ما يفعلون.

ولعمرى أن الفصيح قد يعدل عن التصريح إلى التلويح لكن على وجه يكون أبلغ من التصريح، وبألفاظ تكون أجزل من ألفاظ التصريح ويكون ذلك لغرض صحيح، وذلك مثل قول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [1] أراد أنى على الهدى وأنتم فى ضلال مبين، فعدل عن ذلك إلى الإيجاز والتلويح بلفظ هو أشرف وأجزل وكان الغرض فى هذا: بيان ذلك بما يكون أجمل، والتنبيه عليه بما يكون ألطف، وكلام هذا المختلف لا يحتمل ذلك لأنه أردفه بقوله: "عليهم غضب من ربهم" وهذا نبو فى المعنى الذى له، يعدل عن التصريح إلى التلويح ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ [2] فعاتبهم بألطف عتاب، وجعل خطابهم أجمل خطاب، ثم عقبه بقوله: ﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ﴾ فكان عجز الكلام مطابقا لصدره، واستمر الغرض فيهما على

---

١ - سبأ: ٢٤

٢ - آل عمران: ١٥٢

منهاج واحد، ومن زيادته أيضا قوله:" أولئك وراءهم شر ما يظنون " وهذا وان كان اللفظ لغو فإنه أخذه من معنى قول الله تعالى: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾[1] وكساه من لفظه الخسيس ما أزال رونقه وبهجته.

ومن كلام هذا الجاهل وأوهم أنه عارض: "قل أعوذ برب الناس المعاذ بصاحب البلد، مالك البلد، وبانى البلد، وساكن البلد، من شر العاربة وأهل الطاغية الذى أضل صاحبه، ومنع جانبه، وحمى جاره من سكان المدر وخلاف العذر والعرر ".

تأملوا – رحمكم الله – حال هذا الجاهل فى ادعائه أنه أورد معارضة، ومن جاء إلى كلام فصيح شريف الوضع أو كلام متوسط، أو مسترذل، فأبدأ كل كلمة منه بكلمة نافرة أو غير نافرة، هل يكون معارضا ؟ وهل يستحق ذلك أن يسمى معارضة ؟

فأما قوله: " أضل صاحبه ومنع جانبه " إلى آخر الفصل: فكلام لا يلاحن بعضه بعضا ؛ لأن قوله " أضل صاحبه ": ذم، وقوله: " حمى جاره ": مدح. وقوله: " سكان المدر وخلاف العذر والعرر " لا ملاءمة بين بعضه والبعض، وإنما طلب به السجع من أقبح الوجوه. على أن سكان المدر لا مزية لهم فى الشر على غيرهم فلا وجه لتخصيص الاستعاذة من شرهم لولا عمى قلبه.

وقلنا أن هذا الفصل لا يصح بته على وجه من الوجوه أن يسمى معارضة. لأنه جار مجرى أن يقول الإنسان: " ونظنهم منتبهين وهم نيام ".

ويدعى أنه عارض قوله: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾[2] فلا يستحق أن يسمى معارضة بتة؛ لأنه أبدل كل لفظة منه بلفظة، وأتى بألفاظ وضيعة بدل ألفاظ شريفة.

ولئن جاز أن ذلك معارضة فلم لا يكون معارضا لقول امرئ القيس.

---

١ – الزمر: ٤٧

٢ – الكهف: ١٨

كـأن قلــوب الطـير رطبـا ويابسـا لدى وكرها العناب والحشف البالى

بأن يقول:

تـخال الوحـش فى طل أرضنا وفى بيتنا: التفاح والعنب البالى

ولم لا يكون معارضا لقوله:

خليـلى مـرا بـى على أم جندب لنقضى حاجات الفؤاد المعذب

بأن يقول:

حبيبيا سيرا بى على أخت زينب لنقضـى أوتار الفأؤاد المعذب ؟

ولم لا يكون معارضا لقول الكميت:

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب ولا لعبا منـى وذو الشيـب يلعـب

بأن يقول:

لعبت ومـا مـيلا إلى السمر ألعب وما لهوا منى وذو السن يطرب ؟

أترى هذا الجاهل لم يعرف شيئا من نقائض جرير والفرزدق ولا معارضات امرئ القيس وعلقمة[1]؟ ولم يتصور كيف كانت تجرى المعارضات بين العرب؟ وما عندى أنه خفى عنه ذلك لكنه أراد أن يسخر بما أتاه من بعض الجهال أو الأغمار.

على أن كلام ابن المقفع إذا لم يدع أنه يعارض القرآن ليس من هذا الجنس، بل هو من كلام الفصحاء.

فإن قيل: فكيف يجوز أن يجود كلامه إذا قصد غير معارضة القرآن، ويسقط إذا أرادها، إلا أن يقولوا بالصرف.

---

١ - علقمة بن عَبَدة بن ناشرة بن قيس (توفى نحو ٢٠ ق.هـ/ ٦٠٣ م) معروف بعلقمة الفحل وهو من بنى تميم، شاعر جاهلى من الطبقة الأولى. عاصر امرؤ القيس، وله معه مساجلات. أسر الحارث ابن أبى شمر الغسانى أخا له اسمه شأس فشفع به علقمة ومدح الحارث بأبيات، فأطلقه. له ديوان شعر شرحه الأعلم الشن.

قيل له: هذا ما نبينه ونوضحه فى الفصل الذى نبين أن الأعجاز تعلق بالنظم والفصاحة جميعا، وستجده إن شاء الله هناك شافيا كافيا.

ومن كلام هذا الجاهل - أعنى ابن المقفع -: " ألا إن الذين اتخذوا إلها من دون الواحد القهار، لبئس ما يصنعون، ولا تكونوا كالذين آمنوا،ولم يثمر إيمانهم، لظلمهم، أولئك عليهم غضب من ربهم وهم لا يهتدون " والكلام فى هذا كالكلام فيما تقدم، الألفاظ كلها ألفاظ القرآن حرفها وأفسدها بالتقديم والتأخير، والتبديل والتغيير، ثم جاء إلى قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾[1] فغيره بأن قال: "الذين آمنوا ولم يثمر إيمانهم لظلمهم" فجاء إلى ذلك النظم الشريف الرائع فنقله إلى النظم العامى.

ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ جرى على منهاج، وطريقة واحدة. فإنه جعل الفعل فى الأول والآخر للذين آمنوا فاتسق الكلام أحسن الاتساق، وانتظم أحسن الانتظام. وهذا الغبى جعل الفعل الأول للذين آمنوا، والفعل الثانى لإيمانهم؛ لأنه قال: " لم يثمر إيمانهم " فحصل فى الكلام بعض الاضطراب.

ولست أقول: أن هذا القدر لا يحتمل أن يقع فى كلام الفصحاء، ولكن إذا أتى كلاما فصيحا فرام أخذ معناه بلفظ من عنده يكسوه، فأقل ما فى بابه أن يساويه، وإن لم يجاوره، فأما أن يسقط دونه فهو من أمارات الخذلان، على أنا قد بينا: أن هذا الجنس من الكلام لا يستحق اسم المعارضة. ومن أتى به لا يصح أن يسمى معارضا على مذهب العرب والعجم. فإن للعجم أيضا معارضات على مقادير لغاتهم، وضربنا لصحة ما قلناه الأمثال بالأبيات التى أبدلنا كل لفظة منها بلفظة، فاتضح الكلام فيه بحمد الله ومنه.

ومن كلام هذا الجاهل – وقيل: انه أوهم به معارضة قول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾[2] تأمل صنيع الله بأهل الشام، وقد

---

١ - الأنعام: ٨٢

٢ - الفجر: ٦-٧

شملتها الآثام،وكثر فيها الإجرام،فيومئذ حين أظلتهم الآكام، والقادمين من السوق بالخيام، أن ربك صب عليهم سوء العذاب، انه لا يعجل العقاب، ولهم الجزاء الأوفى يوم الثواب ".

تأملوا رحمكم الله هذا الفصل وما فيه من الخلل لتعلموا بعد هذا الإنسان عما تحراه، وسقوط كلامه دون الغرض الذى رماه، فإن أول الكلام من كلام الكتاب المقلين فى البضاعة، المتكلفين للصناعة، وفى كتاب عصرنا من لا يلحق هذا الكلام شيئا وكلامه. فقوله: " شملتها الآثام، وكثر فيها الإجرام " تطويل لا يفيد آخره، إلا ما أفاد أوله، ولعل ظانا يظن أنه مثل قول الله عز وجل:

﴿ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴾[1] وليس ذلك كذلك، لأن الطغيان هو مجاوزة الحد فى الترفع والتكبر، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴾[2] والخنا والفساد ليسا من ذلك فى شئ.

وهذا الجاهل أخذ هذا من قول الله تعالى: ﴿ وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ ﴾[3] فانظروا فى حال الكلامين فى جزالة اللفظ واختصاره مع أن فيها المعانى ليعلم أن ما بين الكلامين، ما بين الثرى والثريا، وقوله: "إن ربك صب عليهم سوء العذاب" وقوله: "الجزاء الأوفى" كله من ألفاظ القرآن؛ لأنه أفسد الوضع حين عقب "صب عليهم سوء العذاب" بقوله: أنه لا يعجل العقاب" لأنه لا يحسن أن يقال: عذبهم. ثم يقال: لا يعجل العقاب، لأن الإخبار بأنه لا يعجل العقاب إنما يحسن أن يكون توعدا مع المهل، أو توعدا قبله، أو بعد ذكر العفو، فأما مع الأخبار بنزول العذاب فانه لا يحسن، لكن يد الخذلان تصرفه كيف شاءت، ولهذا لم يذكر الله عز وجل ترك تعجيل العقاب ألا مع ذكر المهل أو العفو، وهما كقوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن

---

١ - الفجر: ١١-١٢

٢ - الحاقة: ١١

٣ - البقرة: ٨١

دُونِهِۦ مَوْبِلًا ﴾[1]. وكقوله: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[2] وكقوله: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾[3] وكقوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴾[4] إلى قوله: ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ﴾.

وقول هذا الجاهل: " ولهم الجزاء الأوفى يوم الثواب " كلام مختل ؛ لأن جزاء المخرج لا تعلق له بالثواب، ومن كلام هذا الجاهل بعد هذا الفصل " يا أيها الناس قد نسب أهل العراق إلى الشقاق والنفاق، وفى مائها الزعاق،ويظهرون طاعتهم للخلاق، وأن ربك هو أعلم بمن حاد عن طريقهم، وهو أعلم بالمعتدين، وأوفى للمهتدين ".

أما ابتداء هذا الكلام فهو أسجاع باردة، لا فائدة فيها وهو من جنس كلام مسيلمة، ولهذا قال أبو بكر لما بلغه شئ من كلام مسيلمة: " أنه كلام لم يخرج من اله " يعنى من عند الله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[5] فأفسد النظم لأن قول الله تعالى اشتمل على قسمة حسنة ؛ لأنه بين أنه أعلم بمن ضل عن سبيله، وبمن اهتدى، وهذا الجاهل غير ذلك، وأزال حسنه، وجعله تطويلا غير مفيد، لأن الحائد عن الطريق والمعتدى واحد، مع أن فيه إبدال لفظة بلفظة، وقد بينا أن ذلك لا يصح أن يسمى معارضة.

ثم قال هذا الجاهل:" ولئن أكرمه، وأفاء من النعمة عليه ليتم لها شكره،ثم يعرف بذلك ربه، أنه رب عليم، ورءوف حليم " وهذا كلام كما ترى ركيك من كلام الكتاب الذين لم يتقدموا فى الصناعة، ولم يؤتوا حظا من البراعة. ولهذا الجاهل

---

١ - الكهف: ٥٨

٢ - النحل: ٦١

٣ - فاطر: ٤٥

٤ - الأنعام: ١٣٣

٥ - النحل: ١٢٥، القلم: ٧

كلام كثير يجرى هذا المجرى، ولا فائدة فى إطالة الكتاب بذكر جميعه بعد أن نبهنا على نمطه وطريقه، لئلا يغتر به مغتر.

ثم قال بعد فصول من كلامه: "وبقى أن تستوى حالة الكلامين بأن لا يتفاضل الاعتقاد فيهما، فيعظم أحدهما، ويصغر الآخر، ثم تكثر تلاوة أحدهما كما كثرت تلاوة الآخر، فيستعذب ألفاظ أحدهما كما يستعذب ألفاظ الآخر، ويستفصحه كما استفصح الأول فبالألف، يعذب المتلو، ويستلذ المأكول والمشروب والمنكوح، وبالتنكر والاستغراب، ينفر عنه،، يبعد عن الصواب، ولتمد به الحنجرة سخفاء الكتاب المتأخرين فى البلاغة كتب كتابا يظن اللفظ ساقط المعنى، ثم يذكر أنه عارض به رسائل المتقدمين فى صناعة الكتابة، ثم اعتذر بما اعتذرت به، فقال: يجب أن لا يتفاضل الاعتقاد فيهما فيعظم كلامه، ويصغر كلامى، هل يكون جوابه عند أهل المعرفة بهذا الشأن إلا التبسم والاستسخاف لعقله ومعرفته ؟

وأما قوله: " وليكثر من تلاوته كما أكثر من تلاوة الآخر " إلى آخر الفصل، إلى ذكره المأكول والمشروب والمنكوح، كلام جاهل بالعبارات، أو متجاهل؛ لأن المعلوم من أحوال الناس وعاداتهم التى لا تكاد تخفى على المراهقين[1] فضلا على

---

١ - المراهق: من أَرْهقَنا الليلُ: دنا منا. وأَرهقْنا الصلاةَ: أَخَّرناها حتى دنا وقت الأُخرى. ورهِقَتْنا الصلاة رَهَقاً: حانت. ويقال: هو يَعْدُو الرَّهَقَى وهو أَن يُسرِعَ فى عدْوه حتى يَرْهَقَ الذى يطلبُه. وراهق الغلامُ، فهو مراهِق إِذا قارب الاحتلام. والمُراهِق: الغلام الذى قد قارب الحُلُم، وجارية مراهِقة. ويقال: جارية راهِقة وغلام راهِق. (ابن منظور، مادة: رهق). ويوضح حسين عبد القادر وزملائه (١٩٩٣: ٧٠٤) أن مرحلة المراهقة من مراحل التطور تبدأ من البلوغ، وتتسم بحشد من التغيرات الفسيولوجية والنفسية والاجتماعية بجنباتها المختلفة، وتدخل دراستها فى إطار علم نفس النمو، وهى تقع بين الطفولة والرشد. وأصلها فى اللاتينية الفعل Adolescere والذى يعنى التدرج نحو الرشد بكافة أوجهه.. بينما يأتى اشتقاقها فى اللغة العربية من الفعل "رهق" وهو ما يعنى الحمق والجهل بقدر ما يعنى دخول الوقت والدنو واللحاق والقرب، ويقال رهق الغلام أى قارب الحلم. وإذا كان من السهل تحديد بداية المراهقة ببدء البلوغ الجنسى، إلا أنه من الصعب الاتفاق على نهايتها التى يمكن أن تتحدد فى جماع Synthese جديد يأتلف من عدة أبعاد منها: استقرار كل من الحياة الوجدانية والنفسية بعامة والاجتماعية بما يضمنه من تحمل المسئولية والاستقلالية والوعى بالذات ليكون المراهق (والمراهقة) هو نفسه كهوية مستقلة موجبة. والمراهقة بهذا المعنى – من وجهة نظر البعض – إنما هى صدمة أو هى مصدر لإحباطات شتى باعتبارها ميلاداً جديداً قد يؤدى إلى زملة من الأعراض تختلف باختلاف درجة النكوص إلى أى من مراحل التطور السابقة، وذلك عندما لا يستطيع الأنا شحذ طاقاته المتبقية فى مواجهة هذا الصراع الفريد والممتد معاً (ضد الداخل

البالغين المح بلا وحى أتاه ولا كتاب صلين: أن الإكثار من الشئ تلاوة، كانت فيما يتلى، أو شربا فيما يشرب، أو غير ذلك يوجب الملال، ويسبب السآمة، ويصور المتلو والمشروب والمأكول والمنكوح يصوره بما يستقل، لهذا يعدل الانسان فى هذه الأمور من شئ إلى شئ مستريحا إلى الثانى عند الملال من الأول، ولهذا يستكثر من ألوان الطبيخ، ولهذا يعدل فى النكاح عن الحلال الحاصل إلى الحرام المستحدث، وربما كان من يتمكن الانسان منها أصبح وجها ممن لا يتمكن، وليس الغرض فيه إلا الاستلذاذ للجديد، فالأمر فيما ذكره إذن على العكس مما قاله.

فإن قيل: فنحن نعلم أن بعض أهل البلدان يستلذون من الأطعمة والملابس ما لا يستلذه أهل بلد آخر، وليس ذلك إلا للألف.

قيل له: ذلك يكون إذا اختلفت الأجناس، كما أن أهل(طبرستان)[1] يستلذون

والخارج)، وتخطى هذه المرحلة الحاسمة فى البناء النفسى. آنئذ يكون النكوص للمراحل المبكرة أمراً محتوماً وخاصة عندما تفشل الصور الإعلائية أو الحلول الإفراغية التى يقوم بها الأنا فلا يملك غير الدفاعات المرضية فى مواجهة الأخطار الناشئة.

١ - طَبَرِستانُ: معنى "الطبر" الآلة التى يشق بها الحطب، و"استان" الموضع أو الناحية كأنه يقول: ناحية الطبر. وهى بلدان واسعة كثيرة يشملها هذا الاسم، خرج من نواحيها من لا يُحصى كثرة من أهل العلم والأدب والفقه، والغالب على هذه النواحى الجبال .وطبرستان فى البلاد المعروفة بهازَنْدَران، ولا أدرى متى سميت بهازَندران فإنه اسم لم نجده فى الكُتب القديمة، وإنما يُسمَع من أفواه أهل تلك البلاد، ولا شك أنهما واحد. وهذه البلاد مجاورة لجيلان وديلمان، وهى بين الرى وقومس والبحر وبلاد الديلم والجيل. رأيت أطرافها وعاينتُ جبالها وهى كثيرة المياه متهدّلة الأشجار كثيرة الفواكه، إلا أنها مخيفة وخِمَة قليلة الارتفاع كثيرة الاختلاف والنزاع. وفيما روى ثقات الفرس قالوا: اجتمع فى جيوش بعض الأكاسرة خلق كثير من الجُناة وجب عليهم القتل فتحرج منه وشاوَرَ وزراءه ثم قال: اطلبوا لى موضعاً أحبسهم فيه، فساروا فى البلاد حتى وقعوا بجبال طبرستان فأخبروه بذلك فأمر بحملهم إليه وحبسهم فيه، وهو يومئذ جبل لا ساكن فيه، ثم سأل عنهم بعد حول فأرسل من يخبر بخبرهم فأشرفوا عليهم فإذا هم أحياء لكن بالسوء فقيل لهم: ما تشتهون؟ وكان الجبل أشِباً كثير الأشجار فقالوا :طَبرها طَبرها، والهاء فيه بمعنى الجمع فى كلام الفرس يعنون نُريد أطباراً نقطع بها الشجر ونتخذها بيوتاً. فلما أخبر كسرى بذلك أمر أن يعطوا ما طلبوا فحمل إليهم ذلك، ثم أمهلهم حولاً آخر وأنفذ من يتفقدهم فوجدهم قد اتخذوا بيوتاً فقال لهم: ما تريدون فقالوا: زَنان زَنان، أى نريد نساء فأُخبر الملك بذلك فأمر بحمل من فى حُبُوسه من النساء أن يُحمَلن إليه فحُملن فتناسلوا فسميت طبرزنان أى الفؤوس والنساء ثم عربت فقيل: طبرستان. هذا قولهم، والذى يظهر لى وهو الحق ويعضده ما شاهدناه منهم أن أهل تلك الجبال كثيرو الحروب، وأكثر

خبز الأرز، فوق ما يستلذون خبز البر، فأما إذا كان الجنس واحدا، فلا شك فى مزية المستحدث الجديد. ولهذا قيل فى المثل، " لكل جديد لذة ".

ولهذا قالوا فى القرآن: " أنه لا يخلق ولا يمل على كثرة الرد " فجعلوا ذلك من آياته. ولا يكسب الملال إذا كثر ترديده،ودامت تلاوته، يجرى الأمر فيه على خلاف المعتاد، على أن ما ذكره لو كان صحيحا لبطل التفاضل بين الأشياء فى ذواتها، وكان الفضل يرجع إلى المعتاد المتقادم، وكان المكثر لإنشاء شعر الحبرزى إذا أنشد فى النادر شعر امرئ القيس، وكان عارفا بالشعر، ومحاسنه ومساوئه، وبالفرق بين الكلام الفصيح وغير الفصيح، يجب أن يرى شعر الحبرزى على طبقة من شعر امرئ القيس، وهذا لا يرتكبه إلا جاهل، فكان يجب على هذا أن يكون الذى يكثر عنده الجوارى الزنجيات القبائح، إذا وجد رومية حسناء أن يكون استلذاذه للزنجيات القباح أشد، وهذا هوس[1] لا يظنه عاقل.

فأما مد الحنجرة به، فأى تأثير له فى مواقع الكلام ؟ أما يعلم هذا الجاهل:أن الانسان قد يسمع كثيرا من الأبيات الملحنة من المغنين والقوالين، ثم لا يخفى عليه إذا كان من أهل الصناعة: الفرق بين جيدها ورديئها وفصيحها ومسترذلها، ثم لا يخفى عليه الفرق بين الردئ الذى سمعه ملحنا، وبين الذى لم يسمعه قط ملحنا ؟

أسلحتهم بل كلها الأطبار حتى إنك قل أن ترى صعلوكاً أو غنيا إلا وبيده الطبر، فكأنها لكثرتها فيهم سميت بذلك ومعنى طبرستان من غير تعريب موضع.

١ - يعتبر الهوس من الذهان الوظيفى، الهوس - شأنه شأن الاكتئاب - حالة مرضية تبدو أوضح ما تكون فى الجانب الانفعالى للشخص، والشخص فى حالة الهوس يكون مناقضاً تماماً لحالة الاكتئاب، حيث يكون مملوء بالنشاط والانشراح والسرور والبهجة والرضا عن النفس والسعادة بالظروف التى يعيشها، ويكون نشاطه الحركى وأيضاً الفكرى سريعاً ومتعجلاً، ويصرف انتباهه ويحوله من موضوع لموضوع بسرعة دون أن يتمها، وعادة ينقص نشاطه التحكم والضبط، ويكثر ضحكه وإلقاؤه للنكت حتى البذيء منها دون تحرج. وكثيراً ما يتعرض المهووس للهلاوس والأفكار الهذائية التى توحى بامتيازه وبعظمته وتساند حالة الانشراح والانبساط التى تميز انفعالاته وتنعكس على تصرفاته. ويرى التحليل النفسى فى تفسيره لحالة الهوس أنها رد فعلى لحالة أعمق فى نفسية المريض هى حالة الاكتئاب. وحالة الهوس - كحالة الاكتئاب - أكثر احتمالاً للشفاء عن بقية الأمراض النفسية الأخرى، ويندر أن تصيب الوظائف الذهنى باضطراب، كما لا يتخلف عنها تدهور عقلى واضح. (فرج طه وآخرون، ١٩٩٣: ٨٢٩).

فأى تأثير فى هذا الباب لمد الحنجرة ؟ لولا أنه كما قال عز وجل: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾.

فإن قيل: فهبكم قد عرفتم التفاوت الذى بين القرآن، وبين كلام هذا الانسان، وعلمتم أنه لا يصح أن تكون معارضة القرآن للوجوه التى ذكرتموها، والأمثال التى ضربتموها، فكيف تعرفه العامة والذين لا يعرفون ما ذكرتم وبينتم

قيل لهم: طريق معرفتهم، هو أنهم يعرفون الأخبار التى تتواتر عليهم، أن مثلا أهل العراق، ومن نحا نحوهم، وكذلك الفرس وأشباههم تقصر فصاحتهم وبلاغاتهم فى منثور الكلام ومنظومه عن فصاحة العرب من أهل البادية وبلاغاتهم. إذا عرفوا ذلك وعرفوا عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن بما نبينه عرفوا عجز من دونهم، لأنه لا يجوز أن يعجز عن الشئ من يكون فى الطبقة العليا من التمكن، ولا يعجز عنه من يكون فى الطبقة الدنيا فيحصل لهم العلم بهذا الاعتبار.

إن ما أتى به هذا الجاهل لا يصح أن يكونه معارضا للقرآن. وأن القرآن معجز. والحمد لله رب العالمين على ذلك.

الفصل الثالث

الكلام فى بيان أن الإعراض عن المعارضة إنما كان للتعذر

فإن قيل: ولم ادعيتم أن العرب كفت عن معارضة القرآن لتعذرها عليهم، وما أنكرتم أن يكونوا كفوا عنها وتركوها لبعض أغراض كانت لهم، فإن الناس قد تصرفهم الصوارف عن كثير مما يتمكنون من فعله ؟

قيل له: قلنا ذلك لأنهم كفوا عن المعارضة وتركوها وعدلوا عن الاشتغال بها مع ما كان من النبى – صلى الله عليه وعلى آله – من التحدى لهم على ما بيناه مع توفر دواعيهم لتوهين أمره، وإظهار ما كانوا يدعون من اقترابه – صلى الله عليه – وحاشاه من ذلك. وقد علمنا: أن العقلاء إذا دعوا إلى أمر يكرهونه، يهون عليهم لدفعه وأبطاله بذلك أموالهم وأنفسهم. وكان من يدعوهم إلى ذلك يدعوهم لحجة يبرزها ويدعيها وكانوا متمكنين من إيراد ما يدحضها ويبطلها، ويكشف عن ضعفها ووهنا من غير ضرر يمسهم،أو مشقة عظيمة تلحقهم، فلا بد من أن يأتوا به، ومتى لم يأتوا به، دل على أنهم غير متمكنين من الإتيان به، ألا ترى أن واحدا لو جاء وادعى النبوة فى قوم، وهم له كارهون، ولتكذيبه مجتهدون، فقال لهم: معجزى أن من كلمته منكم فى هذا اليوم لا يمكنه أن يجيبنى، ثم أخذ يكلمهم طوال النهار من غير أن يجيبه أحد منهم، مع وفور بواعثهم على توهين أمره، وتنفير أصحابه عنه بإظهار كذبه، دلنا ذلك على أن جوابه قد تعذر عليهم، وأن ذلك معجز له، وهذا مما لا يخيل على أحد أنصف نفسه أنه على ما قلنا.

وجملة هذا الباب: أن كل من علمنا من حاله أنه لا يفعل فعلا ما، مع توفر الدواعى إليه، وقوة البواعث عليه، ومع ارتفاع الموانع عنه، وفقد الحواجز دونه، يعلم أنه لم يفعله إلا لتعذره عليه. ولولا ذلك، لم يكن لنا طريق من جهة الاكتساب يتوصل به إلى العلم بتعذر شئ على أحد، وفيما ذكرناه وأوضحناه دليل على أن معارضة القرآن كانت متعذرة على العرب.

فإن قيل: فأنتم بنيتم كلامكم هذا على أن دواعيهم كانت متوفرة إلى ما ذكرتموه، فدلوا عليه.

قيل له: من أوضح ما يدل على قوة دواعى المرء إلى أمر من الأمور، يعرف من حاله أنه قد بذل لطلبه ونيله، والتوصل إليه أعز الأشياء عليه، وقد علمنا أن أعز الأشياء على الانسان: النفس، والمال، والأرحام، ووجدنا مشركى العرب من قريش وغيرهم قد بذلوا الأنفس والأموال. وقطعوا الأرحام لمعاداة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولإدخال الوهن عليه، وإبطال ما كان يدعيه من النبوة، وبذل هذه الأمور، ولا تصح من العاقل، لابتغاء أمر، وطلب حال، إلا إذا كانت دواعيه إليه، وبواعثه عليه، تكون قد بلغت فى القوة مبلغا عظيما، حتى قاربت حد الإلجاء، وإن لم يكن بلغته، على أن الأسباب المقوية للدواعى والبواعث كانت حاصلة، فلا بد من حصول قوتها لأن أقوى الدواعى أن ينظر الإنسان إلى نظرائه فى النسب، ويدعى عليهم الرياسة، وأنه يجب لهم الانقياد له، والخضوع لأوامره ونواهيه فيما يحكم عليهم ولهم فى أنفسهم وأموالهم وأهاليهم وذراريهم. مع ذمه من خالفه منهم فلم يتبعه، ولم ينقد له، وتكفيره إياهم. وذم أديانهم، وما كان عليه آباؤهم وأسلافهم من غير رياسة بل يكون فيا لقوم من يزيد عليه فى كثير من الأحوال، ثم تكون أحواله مع ذلك فى ضمان القوة، وأخذة فى المزيد، وأحوال القوم آخذة فى جانب التراجع، ماضية فى حيز التهافت مع حصول تلقيهم بالإمكان لجميع ما ادعاه، ودعاهم إليه وشدة امتعاضهم لذلك مع أن القوم يعرفون بالعصبية، وشدة الحمية، والقرآن مما كانوا يعتقدون أن عليهم فيه سبة وعارا، وكل

ما ذكرناه كانت أحوال القوم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدل ذلك على قوة دواعيهم إلى ما ذكرنا، ولم يجز مع ذلك أن لا ينفع منه معارضه القرآن، لولا تعذرها عليهم.

فإن قيل: ما أنكرتم أن يكون القوم خفى عليهم أن معارضة القرآن أبلغ الأشياء فى إبطال دعواه وأزالته عما كان يتوخاه، فأعرضوا عنها إلى ما سواها، واشتغلوا بما عداها.

قيل له: هذا لا يجوزه من عرف أحوالهم ؛ لأنهم كانوا أعرف الأمم بمواقع المخاطبات، ومذاهب المعارضات، إذ تلك من عاداتهم السالفة، وسجاياهم الحالفة، ولا يجوز أن يكون خفى عليهم، أن معارضته لو تمكنوا منها تكون أبلغ الأشياء فى توصلهم إلى مرادهم فيه، لأنه – صلى الله عليه وآله – لم يكن يدعى ما كان يدعيه لتمكنه من مال أو سلطان أو اقتدار أو تعزز بشريعة يصدرون عن أمره فيما يمثله لهم من محاربة عدو أو معاونة ولى، وإنما كان يدعى أنه رسول الله – صلى الله عليه – وأن شعاره ودثاره الصدق ومجانبة الكذب، ومن يكون كذلك لا يخفى على العقلاء أن أبلغ الأشياء فى تبديل حاله، وتفريق أصحابه ورجاله عنه إظهار كذبه فيما يدعيه، ويقوله.

وهب أن ذلك يخفى على الواحد والاثنين لغفلة تعرض – مع تعذر ذلك – كيف يجوز أن يخفى ذلك على العدد الكثير والجم الغفير ؟وهب أن ذلك يخفى مدة من الزمان يسيرة كيف يجوز أن يخفى ذلك ثلاثا وعشرين سنة ؟ وهب أنهم ظنوا فى أول الأمر أنهم يقمعونه بالحرب والقتال. كيف يظنون ذلك بعد ما كشفت لهم تلك الحروب عن قوة أمره. وضعف أمرهم، بل قتل كثير من صناديدهم وساداتهم حربا وصبرا، وسبى كثيرا من ذراريهم، ونفى كثير منهم عن أوطانهم

وهذا أوضح من أن يحتاج له إلى تطويل الكلام.

فإن قيل: ما أنكرتم أن يكون ذلك خفى عليهم، لأنهم كانوا أخوان الحروب،

وأصحاب الفارات، ولم يتواتر أن ضربوا فى الجدل وطرائقه بسهم، ولا ثبت لهم فى ذلك قدم، ولم يكن النظر فى الديانات، والبحث عن صحيحها وسقيمها، والتنقير عن الطرق المؤدية إلى الفصل بين الحجج والشبه من عاداتهم.

قيل له: هذا ما لا يجوز أن يخفى عليهم ؛ لأن علمهم بالمعارضات وطرقها كان أقوى علومهم، ومعرفتهم بها أكثر معارفهم، و ما يجرى هذا المجرى يكون العلم به ضروريا، ثم العلم بأن من ادعى حالا من الأحوال واعتصم لصحته بأمر من الأمور، فأقوى الأشياء فى إيضاح كذبه، والإبانة عن افترائه وتقوله، هو تبيين فساد ما اعتصم به، وسقوط ما التجأ لتصحيح دعواه إليه من العلوم الضرورية التى يشترك فيها العقلاء، والمراهقون الذين قارنوا كمالا لعقل، وان لم يكونوا بلغوه، ولهذا ترى المختلفين فى قيمة سلعة إذا ذكر المغالى بها سلعة على صفة، يجب أن يغالى بقيمتها من أجل تلك الصفة التى تحد المخالف له فى ذلك أن يطعن فى تلك الصفة، وينازع فيها، ولا يشتغل بغير ذلك، وتجد الصبيين إذا ادعى أحدهما أمرا، أحسن صراعا من الآخر لوجه يورده ترى المبارى له ينازعه فى تلك الصفة يحاول إيراد ما يمنعه من الاحتجاج بها، ثم تجد أحوال أصحاب المهن من الصناعات، والمشتغلين بالزراعات يستوون فيما ذكرناه، ويتبارون فيما حكيناه، فإذا ثبت ذلك بأن ما ادعوا خفاءه على العرب من أحوال المعارضات باطل، لا يدعيه عاقل.

على أنهم بعد مهاجرة النبى – صلى الله عليه – إلى المدينة قد خالطوا أهل الكتاب، واستعانوا بهم ولهذا انضم قريش وغطفان[1] بعضها إلى بعض، وانضم إليهم اليهود الذين كانوا حول المدينة، يوم الأحزاب، واجتمعوا وتناصروا، وكان الساعى فى ذلك والجامع لشملهم، والمؤلف بينهم "حيى بن أخطب[2]" وهو القائل

---

١ – بنو غطفان بن سعد أو غطفان قبيلة عربية من قبائل الجاهلية وصدر الإسلام ينتسبون إلى غطفان بن سعد بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان سكنوا بادية نجد إلى الحجاز جهة وادى القرى و بوادى المدينة المنورة تفرقوا فى البلدان بعد الفتوحات الإسلامية.

٢ – حيى بن أخطب بن سعية، من سبط اللاوى بن نبى الله إسرائيل.

لرسول الله – صلى الله عليه – يوم قريظة[1] حين قدم لضرب عنقه " يا محمد ما لمت نفسى فى عداوتك ".

واليهود كانوا يتعاطون النظر فى الديانات، وكذلك النصارى، فهلا تهيأ لهم من ذلك ما خفى على مشركى العرب ؟ وهلا اهتم بها – أعنى اليهود والنصارى – إذ كان فيهم الفصحاء والبلغاء وأرباب الألسن، لولا علمهم بتعذرها عليهم.

على أن ما روى عن الوليد بن المغيرة، وعتبة بن ربيعة، وأمية بن خلف فيما تقدم لذكره، يدل على أن القوم كانوا فطنوا لذلك ولم يكن خفى عليهم، وكانوا قد صرفوا همهم إلى الاشتغال به، فبان أن الذى أوجب كفهم هو التعذر. وإنما كان لسهو عرض لهم. وخطأ فى التدبير أتفق عليهم، فقد يعرض السهو فيما يكون العلم به ضرورة، ويتفق الخطأ والذهاب عن الرأى فى كثير من التدبير.

ولهذا تجد الخطأ يكثر فى تدبير العقلاء فى الحروب والسياسات والأمور العامة والخاصة.

قيل له: أن الذى يجرى هذا المجرى من الخطأ والانحراف عن الصواب أن اتفق يتفق للواحد والاثنين، والمرة بعد المرة. فأما أن يكون العدد الكثير من العقلاء، تمر عليهم السنون، وتكر عليهم الأعوام، وهم على ضرب من السهو فيما يكون العلم به ضرورة، ولا يتنبهون عليه، ولا يتنبه عليه واحد منهم، على مر الزمان، وتطاول الأعوام، فذلك مما يستحيل، ولا يجوز توهمه.

فإن قيل: أن القوم كانت لهم صوارف صرفتهم عن الاشتغال بالمعارضة. فقابلت تلك الصوارف تلك الدواعى التى دعتهم، ولا يمتنع فى الدواعى والبواعث أن يقابلها الصوارف، فلا يحصل الفعل الذى دعت الدواعى إليه، وإن كان ممكنا غير متعذر.

---

١ – بنو قُرَيْظة: قبيلة يهودية كانوا حلفاء الأوس، وكانت ديارهم بضواحى المدينة (سيرة ابن هشام ٣ / ١٤١، تاريخ الطبرى ٢ / ٥٨١)

قيل له: لا سبب إلى إدعاء صوارف مجهولة، ولا صوارف غير معلومة. لأن ذلك يؤدى إلى أن لا يمكن الفصل بين ما يتعذر فعله علينا، وما لا يتعذر. فإذا ثبت ذلك. فالصوارف المعلومة لا تخلو من وجوه نذكرها، أما أن تكون طلبتهم الراحة، وفرارهم من التعب الذى يلحقهم بالإتيان بالمعارضة أو إيثارهم الإبقاء عليه – صلى الله عليه – حشمة له، وكراهة لمكاشفته، واستشعارهم خوفه، وخشيته، واستهانتهم به، واشتغالهم بالحروب، أو ظنهم أن غير المعارضة أجدى عليهم، وأدنى إلى مرادهم.

ولا يصح أن يقال: أن القوم مالوا إلى طلب الراحة، من الاشتغال بالمعارضة ؛ لأنهم قد باشروا بمعاداته – صلى الله عليه – أمورا، هى أكثر تعبا وأشد نصبا، وأعظم خطرا، من المعارضة.

فإنهم بذلوا الأموال والمهج، وحاربوا حتى قتلوا وقتلوا وفرقوا كلمة العشيرة، وقطعوا الأرحام القريبة، وواصلوا أولى الأسباب البعيدة، ولا يخفى على أحد من العقلاء: أن المعارضة لو أمكنتهم كانت تكون أقوى مشقة، وأقرب متناولا، وأيسر مطلبا، وأذهب مع الراحة، وأدنى إلى السلامة.

ولا يصح أن يقال: أنهم آثروا الإبقاء على رسول الله – صلى الله عليه – واحتشموه وكرهوا مكاشفته؛ لأن القوم لم يدعوا من قبح معاملته – عليه السلام – بابا إلا قرعوه، بل ولجوه، حتى حملوا أختانه على طلاق بناته – صلى الله عليه – فقالوا: نشغله بهن حتى لا يتفرغ إلى ما هو فيه، فأجابهم إلى ذلك عتبة وعتيبة ابنا أبى لهب، وردهم أبو العاص بن الربيع[1]، وقالوا لأبى طالب: ندفع إليك فتى قريش وأصبحهم وأفصحهم: عمارة بن الوليد بن المغيرة[2] لتتبناه، وتدفع إلينا محمد

---

١ – أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى. الذى اشتهر بالأمانة فى المعاملات التجارية التى كان يقوم بها، راعيا للتجارة فى رحلاته إلى الشام صيفاً وشتاءً.

٢ – هو عمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومى. إبن الوليد بن المغيرة من أكثر الذين أظهروا العداء للنبى وللإسلام وأخو سيدنا خالد بن الوليد سيف الله المسلول وفارس فرسان الإسلام الذى تدرس خططه العسكرية حتى الآن حيث انه من القادة المعدودين فى التاريخ الذى لم يخسر معركه فى حياته سواء فى الجاهلية أو بعد إسلامه.

فنقتله، فقال أبو طالب: بئس الرأى رأيتم لى، آخذ ولدكم للتربية، وأسلم ولدى للقتل ؟ وكتبوا الصحيفة على بنى هاشم وبنى المطلب على ألا يؤوهم، ولا ينكحوهم، ولا ينكحوا إليهم، وأحلوا كثيرا من أصحابه – صلى الله عليه – إلى المهاجرة إلى الحبشة[1] وإلى المدينة. واجتمعوا فى دار الندوة يدبرون عليه.

كما حكى الله تعالى ذلك عنهم بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾[2]

وهذا يسير من كثير مما عاملوه به – صلى الله عليه – بل طل من وابل. بل وشل من بحر . فكيف يظن بهم أنهم آثروا الإبقاء عليه ؟

ولا يصح أن يقال: أن القوم تركوا المعارضة خوفا عليه ولأصحابه، وخشية لهم؛ لأن جميع ما قدمنا يدل على أن القوم لم يخافوه، ولم يحذروا جانبه. ولا يصح أن يقال: أنهم أعرضوا عن حديث المعارضة، استهانة به – صلى الله عليه – وقلة اكتراث بأحواله ؛ لأن جميع ما قدمناه يبين أن القوم كانوا مهتمين بأمره، بل كانوا قد جعلوا

---

١ – أرض الحبشة: هضبة مرتفعة غرب اليمن بينها البحر، وعاصمتها أديس أبابا، ولهم صلات قديمة مع العرب، وللكهم موقف يذكر ويشكر مع المسلمين الأوائل الذين هاجروا إليه فوجدوا فى كنفه ملجأ وحسن جوار. حيث كانت الحبشة المكان الأول الذى ضم وأحتضن المسلمين الأوائل عند هجرتهم الأولى وهربهم بدينهم الحنيف وفرارهم من كفار مكة. وبالرغم من أن الصلات بين الأحباش والمسلمين كانت فى عهد الرسول الكريم طيبة وودية، إلا أنه بدأت بعض الاحتكاكات بين الأحباش والدول الإسلامية بعد ذلك منذ عهد عمر بن الخطاب. ويذكر أن ميناء جدة تعرض لغارات الأحباش مما أضطر المسلمين لرد هذا العدوان، وقد سجل لنا التاريخ مراحل متعددة بين ممالك الطراز الإسلامى ومملكة حبشه المسيحية فقد طمع الأحباش فى مد سلطانهم لهذه الممالك التى ننحكم بحكم موقعها فى منطقة القرن الأفريقى فى التجارة الخارجية عبر المحيط.وقد أرسلت الملكة " هيلانة " ملكة الحبشة فى عام ١٥١٠ رسولاً إلى الملك " عمانويل" ملك البرتغال بهدف الاتفاق على عمل مشترك ضد القوى الإسلامية، لكنها أيضاً كانت تنوى مهاجمة مكة وهى فى هذا بحاجة لمساعدة الأسطول البرتغالى الذى أحرز انتصارات حاسمة على الأساطيل الإسلامية فى المحيط الهندى.وقد استجابت البرتغال لهذا الطلب الحبشى وأرسلت قوة على رأسها أحد أبناء فاسكوداجاما، وقد منيت القوات البرتغالية بخسائر فادحة وقتل قائدها – لكن لم تستطع القوارب الإسلامية أن تحقق نصراً على الحبشة والقوات المؤازرة لها.

٢ – الأنفال: ٣٠

الاشتغال أوكد مهماتهم، ثم الحروب التى جرت بينهم وبينه – صلى الله عليه – بعد مهاجرته إلى المدينة، توضح جميع ما قلناه من أنهم لم يحتشموه، ولم يخافوه خوفا يصرفهم عن ايحاشه، ولم يستهينوا به استهانة دعتهم إلى ترك الفكر فيه، والانشغال بأحواله.

ولا يصح أن يقال: إن اشتغالهم بالحروب صرفهم عن المعارضة، وأقطعهم دونها، وصدهم عنها لأنه كان بين مبعثه – صلى الله عليه – وأول وقعة عظيمة، وقعت بينه وبينهم وهى وقعة بدر نحوا من خمسة عشر سنة. فأين كانوا طول هذه المدة ؟ ثم كان بين وقعة بدر ووقعة أحد نحو سنة، ثم من بعد ذلك أيضا لم تكن الوقائع بحيث لا تنفس، ولا ترجئ من الأعنة، وكثير من تلك الوقائع هم الذين كانوا يبتدؤنها فهل عدلوا عنها إلى المعارضة لو كانت ممكنة لهم ؟ على أن الحروب لا تمنع من المعارضات. وهذا واضح.

ولا يصح أن يقال: أنه خفى عليهم أن المعارضة أجدى عليهم وأدنى إلى ما طلبوه من توهين أمره، لما بيناه من قبل أن ذلك مما لا يجوز أن يخفى على المراهقين فضلا عن العقلاء، وأن العلم بذلك من علوم الضرورة.

فإن قيل: ما أنكرتم أن تكون الدواعى دعتهم إلى تكذيبه وإبطال دعواه، وتوهين أمره دون معارضة إذ كان ذلك غرضهم ومرادهم، فمن أين لكم أن الدواعى دعتهم إلى المعارضة ؟

قيل: قد علمنا أن الداعى إلى الشرع داع إلى أبلغ ما به يتوصل إلى سبحانه،إذا كان ذلك من أيسر الأمور وأسهلها فى التوصل إليه، ألا ترى أن من دعاه عطشه إلى شرب الماء، فإنه يدعوه إلى استدعائه، إن كان ذلك أخف وأيسر أو استعبابه إن كان ذلك أدنى وأسهل، أو اشترائه إن كان ذلك أهون وأقرب. فإذا ثبت ذلك ثبت أن الداعى لهم إلى إبطال أمره وتكذيب دعواه، وإفساد حاله – صلى الله عليه – كان داعيا لهم إلى المعارضة لعملهم بأنهم لو أتوا بها كانت أبلغ الأشياء فى التوصل إلى مرادهم، مع أنها أسهل الأمور فى ذلك وأيسرها، ويمكن أن يورد هاهنا أسئلة

ضعيفة تركنا ذكرها، لوجهين، أحدهما: ما كان من كراهتنا لتطويل الكتاب. والثانى: أن ما قدمناه من الابتداءات والأجوبة يأتى عليها، إذا تأملها المتأمل، ونظر فيها الناظر.

على أن القرآن لا بد من أن يكون قد وقع على وجه يكون بوقوعه عليه ناقضا للعادة، أو يكون وقع خلاف ذلك الوجه بأن يكون وقع كما يقع سائر الكلام المعتاد، فلا بد من أن تكون العرب عارفة بذلك، لأن أحوال الكلام لم تكن تخفى عليهم، فأن كانوا عرفوه ناقضا للعادة، فقد بأن أنهم تركوا معارضته لتعذرها عليهم، وأن عرفوه جاريا مجرى الكلام المعتاد، فلا وجه من أجله يكونون تاركين لمعارضته، وإذا لم يعارضوه فقد صح أنهم تركوها للتعذر، لوقوع القرآن على وجه يكون ناقضا للعادة، ولا يصح أن يقال أنهم شكوا فى حال، لأن علمهم بمثل هذا علم ضرورة، على أنهم لو شكوا كان أقل ما يكون منهم أن يجربوا أنفسهم، ليحصل لهم العلم به بذلك فيعود الأمر إلى ما قلناه، من أنه لا بد من أن يكونوا عرفوا ذلك، وتحققوه، ولا يصح أن يقال: تركوا معارضته، لأنهم وجدوه كسائر الكلام المعتاد الذى كان يجرى بينهم دائما فى محاوراتهم ومخاطباتهم، لأن العلم بأنه بخلاف ذلك علم ضرورى. ولأن ذلك لو كان كذلك لجرى مجرى أن يدعى النبوة، ويتحداهم بأنه يأكل ويشرب ويقوم ويقعد ويتصرف كما يتصرف غيره، ويجعل ذلك معجزته – صلى الله عليه – وهذا لا يجوز أن يقع من العاقل الذى يكون غرضه أن يعظم فى الصدق، ويعتقد فيه أنه ممن يجب أن يطاع، وأن يأتمر الخلق لأوامره، وينزجروا عند زواجره، لأن ذلك مما يجرى مجرى التسوية بالنفس إليه يؤدى إلى أن يسخر منه ويستهزأ به، ويسقط بإيراده من العيون، وتنحط منزلته، لأن ذلك مما ينفر عنه أصحابه، ويمكن أعداءه من التسلق عليه، ولأن ذلك لو كان كذلك لاحتج به الأعداء وقرعوه، وقرعوا أصحابه، وهذا يوضح بطلان قول من يتعلق بذلك.

الفصل الرابع
الكلام فى بيان أن القرآن يجب أن يكون معجزا إذا تعذرت معارضته

فإن قيل: فلم قلتم أن تعذر المعارضة إذا ثبت يكون القرآن معجزا ؟

قيل له: لأنه قد ثبت أن المعجز هو ما يظهر على بعض الناس مما يتعذر الإتيان بمثله على جميع البشر، لحسنه أو لصفة تخصه، فإذا ثبت ذلك، ثبت أن الإتيان بمثل القرآن قد تعذر على جميع البشر، وثبت أنه معجز، وأنه جار مجرى إحياء الموتى، وفلق البحر، وقلب العصا حية، والمشى على الماء.

فإن قيل: ولم ادعيتم تعذره على جميع البشر، وإنما بينتم حال العرب، وتعذره عليهم ؟

قيل له: قد علمنا أن البشر أجمع ثلاث طبقات.

أحدها: عوام الفرس، والهند والروم والزنج[1]، ومن جرى مجراهم من سائر الأمم، الذين لا علم لهم بشئ من لغات العرب بتة، ولا سبيل لهم إلى نظم سطر واحد منها على وجه من الوجوه.

والثانية: هم الذين تعلموا اللغة وتكلفوا معرفتها، وهم طبقات: فمنهم من لم يتعلق منها إلا باليسير الذى لا تأثير له، ومنهم من تجاوز ذلك إلا أنه لم يبلغ مبلغا

---

١ - الزنج: اسم اطلقه جغرافيو العرب على ما يعرف اليوم بالمحيط الهندى الجنوبى المجاور لشاطئ افريقيا الشرقى (القاموس، ج٣، ص ٨٩)

يعد به فى الفصحاء، ولا يتأتى له التصرف فى شئ من أقسام الكلام على وجه يعد فصاحة وبلاغة، ومنهم من تجاوز ذلك إلى أن كاد يناطح فصحاء العرب، ويباريهم فى أقسام المنظوم، وأصناف المنثور.

والثالثة: هم فصحاء العرب الذين حصلت لهم مزايا الفصاحة طبعا لا تكلفا، وسجية لا تعملا، ولا إشكال على أحد فى أن الإتيان بمثل القرآن متعذر على الطبقة الأولى، الذى لا معرفة لهم بشئ من لغات العرب، والطبقة التى يلونهم، وهم الذين أخذوا منها يسيرا لا يؤبه لمثله، والطبقة الذين يجاوزونهم، إلا أنهم لم يلحقوا بشأن الفصحاء، ولم يحلوا بواديهم، وهؤلاء لا يتعذر عليهم صياغة بيت من الشعر لكن لا يعد فى الفصاحة، وإنشاء رسالة، أو خطبة لكن لا يحكم لهم بالبلاغة، وإنما يقع الاشتباه فى حالة الطبقتين الأخريين، وهم الذين بلغوا من هؤلاء مرتبة الفصحاء، ولحقوا بدرجة البلغاء، وتصرفوا فى أقسام الكلام، ثم فصحاء العرب الذين جاوزوا الفصاحة والبلاغة طبيعة وجبلة.

وقد بينا تعذر الإتيان به على هاتين الطبقتين بما تقدم بما لا فائدة فى إعادته، فإذا ثبت ذلك وثبت أن جميع البشر لا يعدون الأقسام التى ذكرناها، ثبت تعذره على جميع البشر، وإذا ثبت تعذره على جميع البشر ثبت أنه معجز على ما بيناه. على أنه إذا ثبت أنه قد تعذر على فصحاء العرب. وهم الطبقة العالية فى هذا الباب فتعذره على الطبقة التى هى دونهم، وهم سائر الفصحاء مما لا شبهة فيه، على أنه يمكننا أن نعرف تعذره على هؤلاء بمثل ما أمكن تعذره على العرب ؛ لأن الأزمنة كلها لم تخل ممن كان يعادى النبى – صلى الله عليه وآله – ويناوئ الإسلام – إما اعتقادا أو تقربا إلى من كان يعتقد ذلك، أو تكسبا به، حتى استفرغوا فى ذلك جهدهم، واستنفذوا وسعهم على ما تقدم طرف من ذكرهم.

فإذا لم يأتوا به صح تعذره عليهم. ولا يجب أن يظن ظان أن المتأخرين أشد تمكنا فى هذا الباب من المتقدمين، من حيث فرعوا التحسين والتطبيق، وعطف أعجاز الكلام على صدره، والاستطراد والتشبيه، والاستعارة، وما جرى مجرى هذا مما يعد فصاحة. وذلك أن المتقدمين كانوا أعرف بجميع هذه المحاسن من المتأخرين،

وكانوا أشد تمكنا من إيرادها مواردها، ووضعها فى مواضعها، وان لم يكونوا لها ولا تعمل. وذلك مما يزيد الكلام حسنا ويكسبه رونقا، والمعرفة بهذه الأمور على حدها يعرفه المتأخرون، ووضع الأسماء لها مما لا يصير الانسان به أفصح ولا أشعر ولا أخطب، وإنما يصلح به الانسان الفاسد، ويضم المتشعب، ويسدد المختل.

لهذا تجد من يعرف كل ما ذكرنا ونعتنا، ويتصوره ويتحققه، ويفصل بين غثه وسمينه، ومستحسنه ومسترذله، ثم إذا أراد أن يعمل قصيدة أو يبتدئ خطبة، أو ينشئ رسالة، عجز عن إنشائها، والمتقدم الذى لم يحصل له العلم بهذه الأسماء والأوصاف. وهذا يجرى مجرى العلم بالعروض وألقابه، ألا ترى أن التقدم فى ذلك لا يوجبه التقدم فى الشعر. ألا ترى أن الشعراء المتقدمين من جاهلى أو مخضرمى أو إسلامى، كان قبل " الخليل " لم يعرف شيئا من ذلك، ثم من جاء بعدهم لم يلحق شأوهم من حيث عرف ذلك، بل أن ينشأ بعدهم من ضرب فى جنس الشعر بسهم فلطبع أوتى، لا لمعرفة بهذه الأمور، فبان بجميع ما بينا أن المتأخر الذى تكلف العلم باللغة، وتعلم المحاسن والمساوئ بالتعمل، لا يجب أن يوفى فى هذا الباب المقصود على المتقدمين من فصحاء العرب الذين جروا على طريقة الفصاحة فى منظوم كلامهم ومنثوره، طبعا وسجية، ولهذا تجد فيمن يعد فى الشعر مفلقا من إذا ترسل اختل اختلالا ظاهرا، وفى المتقدم فى الرسائل، من إذا حاول النظم بعد بعدا متفاوتا، وهذا يكشف أن التكلف والتعمل لا يبلغان المرء طبقة الفصحاء، ولا يلحقانه شأو البلغاء، ولهذا تجد المكثر فى اللغة والعلم بأقسام الفصاحة والمعرفة بمحاسن النظم والنثر ومساوئهما إذا لم يكن له طبع فى الشعر والترسل يسقط إذا حاول الشعر أو الترسل عن درجة المطبوع فيهما وإن كان مُقلاً فى جميع ذلك وبضاعته منها مزجاة سقوطا ظاهرا أو يهبط عن رتبته هبوطا بينا، كالخليل بن أحمد[1]، ومن نحا نحوه من العلماء الذين لم يكونوا أولى طبع.

---

١ - الخليل بن أحمد (٢٨٩ - ٣٧٨ هـ) هو الخليل بن أحمد بن محمد بن الخليل، أبو سعيد السجزى، المعروف بابن جنك فقيه، حنفي، قاض. كان شيخ أهل الرأى فى عصره، وكان صاحب فنون فى العلوم. طاف الدنيا شرقاً وغرباً وسمع الحديث. ومات قاضياً بسمرقند.
[النجوم الزاهرة ٤/ ١٥٣، شذرات الذهب ٣/ ٩١، والأعلام ٢/ ٣٦٣].

فإن قيل: لو كان القرآن معجزا لأنه لم يعارض ولم يؤت بمثله لوجب أن يكون المجسطي[1] وإقليدس[2] والعروض[3] كل واحد منه معجزا يدل على نبوة من أوتى به، وإذا قد ثبت بطلان كون هذه الكتب معجزا، فيجب أن يبطل كون القرآن معجزا على ما ادعيتموه.

قيل له: هذا كلام من لم يعرف وجه استدلالنا فحرمه، ولم يذكره على جهته، وألزم عليه مالا يلزم، ونحن نبين ذلك بعون الله عز وجل، ونكشف عن سقوط هذا السؤال.

إعلم. أنا لم نقل أن القرآن معجز لأنه لم يؤت بمثله قط، بل لأنه تحدى به، ولم يؤت بمثله، مع سائر الشروط التى ذكرناها، وكتاب المجسطى وأقليدس، وما جرى مجراهما من الكتب، لا يصح أن يقع التحدى به، لأنه إن تعذر على غير من آتى به يكون تعذره لأحد وجهين:

إما أن يكون قد استنفذ الطرق، فلم يبق هناك طريق آخر لذلك الشئ، وما جرى هذا المجرى الإتيان به مستحيل لا تصح القدرة عليه، ومالا تصح القدرة عليه لا يصح التحدى به، ألا ترى أن إنسانا لو أتى بشعر مركب من هذه الحروف التى هى ثمان وعشرون، ثم تحدى به فقال: ائتوا بمثله من غير هذه الحروف لم يصح

---

١ - المجسطى: موسوعة فلكية ورياضية ألفها بطلميوس حوالى العام ١٤٠ للميلاد.كانت مرجعا رئيسيا لعلماء الفلك العرب والأوروبيين حتى مطلع القرن السابع عشر تقريبا.ترجمت إلى العربية، نقلا عن السريانية، عام ٨٢٧ للميلاد، ثم ترجمت إلى اللاتينية، نقلا عن العربية، فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر. وهى تقع فى ثلاثة عشر كتابا.

٢ - إقليدس (٣٢٥ ق.م - ٢٦٥ ق.م) هو رياضى يونانى عاش فى مدينة الإسكندرية ويعتبر أبو الهندسة وقد كانت أعماله بشكل عام تشكل أهمية كبيرة فى تاريخ الرياضيات وقد كتب فى الرسم المنظورى والمقاطع المخروطية والسطوح ثنائية البعد.

٣ - العروض هو ميزان الشعر يعرف به مكسوره من موزونه وهو علم يبحث فيه عن أحوال الأوزان المعتبرة وإستقرأ علم العروض الخليل بن أحمد الفراهيدى ويقال إنه أحدث أنواعا من الشعر ليست من أوزان العرب، ويعرف علم العروض بأنه علم بمعرفة أوزان الشعر العربى، أو هو علم أوزان الشعر الموافق أشعار العرب، التى اشتهرت عنهم وصحت بالرواية من الطرق الموثوق بها، وبهذا العلم يعرف المستقيم والمنكسر من أشعار العرب والصحيح من السقيم، والمعتل من السليم.

التحدى به، لأنه ليس فى المقدور، وكذلك لو قال: أنى أضرب واحدا فى واحدا فيكون واحدا. أو اثنين فى واحد، فيكون اثنين، واثنين فى اثنين فيكون أربعة، واثنين فى ثلاثة فيكون ستة،واثنين فى أربعة فيكون ثمانية، واثنين فى خمسة فيكون عشرة، وثلاثة فى ثلاثة فيكون تسعة، وثلاثة فى أربعة فيكون اثنا عشر، وثلاثة فى خمسة فيكون خمسة عشر، وأربعة فى أربعة فيكون ستة عشر، وأربعة فى خمسة فيكون عشرين، وخمسة فى خمسة، فيكون خمس وعشرين، ثم تحدى، وقال:اضربوا بعض هذا العدد ببعض، وأتوا بكامل غير ما أتيت به، كان ذلك لا يصح لأن ما تحدى به يكون مستحيلا، أو جرى مجرى أن يفعل حركة فى جسم فيقول: افعلوا فى غير جسم أو جوهر.

أو يكون التعذر الآن غيره، لم نعمل فيه العكس، ولم نمتحن ولم نتعلم، وهذا أيضا لا يصح التحدى به، لأن ذلك يجرى مجرى تعذر الصياغة على النجار، والنجارة على الخياط.

ألا ترى أن كل من أفكر فيه فكره، وتعمل له تعمله، يأتى منه مثل ما يأتى به المتحدى حتى لا يكون بينهما من التفاوت إلا مقدار ما يكون بين الصانعين من الذكاء والبلادة. فإذا ثبت ما بيناه، وثبت أن المجسطى وأقليدس والعروض، وما أشبهها من الكتب يمكن التوصل إليه بالفكر والتعمل والتعلم والامتحان، ثبت أنه ما لا يصح التحدى به، وإذا ثبت ذلك ثبت أنه لا يصح أن يلزم كونه معجزا على قولنا: أن القرآن معجز. لأن الإتيان بأسلوب من الكلام فى أعلى طبقات الفصاحة أو فى الطبقة العالية بالفكر والتعمل مما لا يصح على وجه من الوجوه. بل لا بد فيه من طبع لا طريق إليه للتكلف والتعمل.

ألا ترى – ولا نشك – أن الخليل بن أحمد كان أكثر فى اللغة والعلم بأوزان الشعر وعيوبه ومحاسنه من امرئ القيس ؛ لأن امرئ القيس كان الظاهر من أمره كان يعرف لغة قومه، والقوم الذين قاربوهم، والخليل تعلم اللغة حتى أحاط بها، ومع ذلك فلا يشك أن الخليل كان لا يمكنه أن يقول من الشعر ما يماثل شعر امرئ

القيس أو يقاربه، ولهذا نرى ما بيننا المكثر من علم اللغة. ومحاسن الشعر ومساوئه إذا لم يكن مطبوعا فى الشعر لا يمكنه أن يأتى من الشعر مثلما يأتى به المطبوع الذى لا يبلغ علمه باللغة ومحاسن الشعر ومساوئه معشاره، بل ربما لم يمكنه أن ينظم بيتا واحدا إلا بجهد عظيم، وتعب شديد، ثم إذا أتى به أتى به فى غاية الوحشة ونهاية السقوط، وهكذا حال إنشاء الرسائل والخطب والتوسع فى المحاورات.

فإن قيل: أن المجسطى وان كان يمكن أن يتوصل إليه بالامتحان والفكر والتعلم فقد كان فى مبادئه مالا يمكن ذلك فيه، ولا طريق للتوصل إليه بالامتحان والتعمل.

قيل له: هذا إن صح فقد قالوا هم: إن ابتداءه كان من (هرمس) وان هرمس هو إدريس النبى – صلى الله عليه – وان كان فيه ما سبيله هذا السبيل فيجب أن يكون معجزا يدل على نبوة من أتى به. ولهذا قال كثير من العلماء فى علم النجوم وعلم الطب: إنهما كانا فى الأصل مما أتت به الأنبياء- صلوات الله عليهم – وأنه لا سبيل للخلق إلا الإتيان بمثله. فهذا مما يجب أن ينظر فيه، إلا أن سؤال القوم قد سقط؛ لأنه إذا صح وثبت ما أدعوه وجب أن يكون ذلك القدر منه معجزا.

على أن المجسطى وأقليدس وما أشبههما من الكتب لو صح التحدى به لم يلزمنا أن نقول: أنه معجز. على قولنا: أن القرآن معجز. لأنا لم نعلم أن القرآن معجز بأن صح التحدى به. وإنما علمنا ذلك لأن النبى – صلى الله عليه وعلى آله – آتى به قوما، هم فى الفصاحة والمعرفة بأساليب الكلام مثله أو دونه بيسير فتحداهم به وقرعهم بالعجز عن الإتيان بمثله، وادعى عليهم أنهم له فى حكم العبيد فى نفوذ أحكامه فيهم، وأنهم يلزمهم مفارقة ما كانوا عليه من الدين وتكفيرهم لم يفارقه والانقياد له ولأوامره، والقوم له كارهون وفى تكذيبه جاهدون، وظهرت قوة دواعيهم إلى كل ما دعى إلى إفساد أمره وتوهين حاله وإظهار كذبه ولم يأتوا بمثله، فدلنا ذلك: على أنه كان متعذرا عليهم ولم يثبت فى المجسطى وما جرى مجراه شئ من ذلك لأنه لم يثبت أنه آتى قوما مثله فى تلك الصناعة وتحداهم بالعجز عن

الإتيان بمثله، وجعله لنفسه حجة عليهم فى أنهم يلزمهم الجرى على أحكامه والتصرف تحت أوامره ونواهيه مع كراهة القوم له ولأحواله ووفور بواعثهم إلى إفساد أمره والإبانة عن كذبه، وأنهم لم يأتوا بمثله مع تطاول الزمان على تلك الأحوال. فإذا لم يثبت شئ من ذلك فكيف يلزمنا أن نقول: أنه كان معجزا ؟ وماله. قلنا: أن القرآن معجز لم يحصل له.

فإن قيل: قد علمنا أن تفرد الواحد بضرب من الفضل حتى يذكر به، ويرؤس بتحصيله، مما يحرك طبع غيره على الإتيان بمثله، فيجرى ذلك مجرى التحدى.

قيل له: هذا لا يقوله من عرف أحوال الناس وعاداتهم، لأنا نعلم من أحوال كثير من العلماء الذين يتقدمون فى كثير من العلم، أنهم لم يكن لهم دواعى إلى تصنيف الكتب فى العلوم التى برعوا فيها. بل ربما لم يجد الواحد منهم، إذا علم أن غيره قد كفاه المؤنة فى ذلك، وأتى بما كان مراده كان ذلك صارفا له عن الاشتغال به، وان جاز أيضا أن يتفق ذلك، ما سأل عنه السائل، لكن ذلك لا يمكن الإبانة بعلم أن للقوم أحوالا. كأحوال من عادى رسول الله – صلى الله عليه وعلى آله – من كفار قريش، وسائر العرب على ما بيناه، ومتى ما مرت الأحوال على ذلك، فلا بد من الإتيان بمثل ما آتى به من كان معهم فى مثل حال النبى – صلى الله عليه وعلى آله – إلا أن يتعذر ذلك عليهم، فأما مقدار ما سأل عنه السائل. فلا يجب من سائرهم أن يقع الإتيان بمثل ما أتى به بعضهم، وإن كان ممكنا لهم.

فإن قيل: فإذا لم يعلموا تلك الأحوال فشكوا فى كونه معجزاً.

قيل له: الوجه الأول يمنعنا من الشك، ويوجب للقطع على أنه ليس بمعجز، وأنه يجرى مجرى سائر الصناعات والمهن، لأنا قد بينا أن التحدى مما لا يصح كما لا يصح ذلك فى الصناعات والمهن.

فإن قيل: فما تنكرون على من قال: أن القرآن هو من هذه الحروف وجنسها مقدور للبشر، ولا يصح أن يكون المعجز جنسه فى مقدور العباد لأنه يؤدى إلى

التناقض، لأن من شأن المعجزات أن يتعذر على العباد، وما كان جنسه مقدورا لهم، فهو متأنى منهم، والتأنى ينفى التعذر، وإذا كان ذلك كذلك لم يصح أن يكون القرآن معجزا.

قيل له: هذا الذى ادعيت من التناقض على الوجه الذى ظننت ظاهر السقوط، لأن جنس الشئ، وإن كان مقدورا للعباد، فإنه لا يجب أن يصح فعل ذلك الشئ منهم على كل وجه، بل لا يمتنع أن يتعذر فعله على بعض الوجوه، وإن صح فعله على وجه آخر، وهذا لا يؤدى إلى التناقض ؛ لأنه من الوجه الذى يتأتى لا يتعذر، ومن الوجه الذى يتعذر لا يتأتى، وإنما يتعذر ما يتعذر بما يكون جنسه مقدورا للعباد ؛ لأن القادر ربما احتاج لإيقاعه على وجه مخصوص إلى كونه عالما، أو فى حكم العالم، أو يحتاج إلى الآلة، وما يجرى مجرى الآلة،فإذا قصد الآلة فيما يحتاج لفعله على وجه مخصوص إلى الآلة، أو القلم فيما يحتاج لفعله على وجه مخصوص إلى كونه عالما تعذر فعله على ذلك الوجه، وإن كان جنسه مقدورا.

ألا ترى أن الفعل المحكم، وإن كان جنسه مقدورا لمن ليس بعالم فإنه يتعذر عليه، ولا يتأتى مثله، ألا ترى أن هذه الحروف أجمع مقدورة للناس أجمع، ومع هذا فلا يصح من أحد إيقاعها على وجه يكون متكلما بلغة العرب إذا لم يكن عالما بلغتهم، وكذلك لا يصح إيقاعها من الأعرابى على وجه يكون متكلما بلغة الفرس، إذا لم يكن عالما بلغتهم، وكذلك حكم الصناعات أجمع كالكتابة والصناعة وغيرهما، لأن جنس ذلك أجمع مقدور للجميع، ثم إيقاعها على وجه الإتقان والأحكام يتعذر على من لم يكن عالما بتلك الصناعة، وكذلك الآلة أيضا.

ألا ترى أن الخياط يتعذر عليه الخياطة مع كونه قادرا عليها، وعالما بها إذا فقد الإبرة، وكذلك الصانع إذا فقد المطرقة، وسائر الآلات التى يحتاج إليها، ولهذا يتعذر علينا الطيران، وان كنا نقدر على جنسه، لأن جنسه إنما هو الأكوان، وإنما يصح منا لفقدنا الآلة التى هى الريش والجناح، ونظائره أكثر من أن تعد وتحصى.

فإذا صح ذلك وثبت وصح سقوط قول من قال أنه يتناقض كون الشئ مقدورا

لنا، متعذرا فعله علينا، على وجه مخصوص فإذا ثبت ذلك جاز أن يكون القرآن معجز يتعذر فعل مثله على جميع البشر، وإن كان جنسه مقدورا لنا يكشف ذلك: أن فلق البحر جنسه مقدور لنا، وإن كان يتعذر فعله على ذلك الوجه المخصوص على جميع البشر، ألا ترى أنه تفريق أجزاء الماء على وجه مخصوص، وأحداث أكوان مخصوصة، وذلك جنسه مقدور للبشر، ألا ترى الله عز وجل لو بعث نبيا وجعل معجزته أنه ينقل بعض الجبال الراسيات عن موضعه لصح ذلك، وإن كان جنس نقله مقدورا لنا ؛ لأن نقله إنما هو أكوان تحدث على وجه مخصوصة، وإنما المراعى فى هذا الباب أنه يحصل أمر نعلم أنه يتعذر فعله مثل على جميع البشر سواء كان التعذر للجنس أو للصفة. ألا ترى أنه لا فرق بين فلق البحر، وبين قلب العصا حية فى هذا الباب، وإن كان تعذر فلق البحر للصفة، وتعذر قلب العصا حية للجنس.

فإن قيل: فلم لا يجوز أن يكون ما يدخل تحت مقدور العباد معجزا، لأن المشاهد له يجوز أن يكون ذلك من فعل بعض مردة الشياطين، أو من فعل بعض من يعصى من الملائكة، لأن العلم بأن الملائكة لا تعصى، إنما هو بطريق السمع، ونحن بعد فى إثبات السمع ؟

قيل له: لا يجب للناظر أن يشك فيه، بل يجب القطع على أن الله عز وجل يمنع منه. وذلك أنه لو حصل لكان شبهة لا يمكن حلها. وما جرى من الشبه هذا المجرى يجب على الله عز وجل المنع منها.

فإن قيل: ولم قلتم: أن ذلك يكون شبهة لا يمكن حلها، بل ما أنكرتم أن يكون ذلك حجة لمن قال انه لا يجوز أن يكون المعجز مما يكون جنسه فى مقدور العباد ؟

قيل له: لأن هذا الجنس من الشبهة يصح إيراده فيما ليس يكون جنسه فى مقدور العباد، بأن يقال يجوز أن يكون بعض الناس ظفر بشجرة إذا قطع غصنها، وألقى على وجه مخصوص يصير حية، ويكون ذلك عادة، ويكون ظفر بشئ إذا مسح به الميت صار حيا من طريق العادة، ويجرى ذلك مجرى الخواص التى تحكى فى أشياء، ألا ترى أن من لم يشاهد حجر المغناطيس، ولم يسمع به إذا شاهده يحرك الحديد بغير

مماسته يجوز كون ذلك معجزا، وكذلك ما يحكى من الحجر المسمى: "باغض الخل"[1] فقد حكى أنه إذا أرسل على إناء فيه خل انحرف، وسقط خارج الإناء، ولم يسقط فى الخل، وكذلك نظائره كثيرة تحكى وتذكر فى الخواص، وكل ذلك جائز من طريق العقل، ولا جواب عن ذلك، أن تعلق به البرهمى، وحاول التوصل به إلى إبطال النبوات رأسا، إلا ما ذكرناه من أن ذلك لو كان شبهة لا مخلص منها فيجب على الله عز وجل المنع منها.

فإن قيل: ما تنكرون على البرهمى أن أدعى أن ذلك ليس بشبهة، بل هو حجة، ويوجب إبطال النبوات ؟

قيل له: جوابه أنا نبين أن البعثة يجوز أن تصير واجبة بأن يعلم الله عز وجل أنها لطف للمكلفين، فإذا ثبت ذلك فلو كانت واجبة لم يكن لها طريق إلا المعجز، فكل ما أدى إلى إبطال المعجزات أجمع، فيجب على الله المنع منه.

فإن قيل: بين هذه الأشياء التى ذكرتم، وبين ما يكون جنسه مقدورا للعباد، أن هذه الأشياء لو وقعت عند ادعاء الكاذب النبوة، لكان الله هو الفاعل لها على وجه يقبح، والله عز وجل لا يفعل القبيح، وما يكون جنسه تحت مقدور العباد لو وقع من مردة الشياطين، ولا يمتنع وقوع القبائح منهم.

قيل له: لا فرق فى هذا الباب بين فعل القبيح والانصراف عن فعل الواجب؛ لأن الله تعالى كما لا يجوز أن يفعل القبيح، لا يجوز أن يدع فعل الواجب؛ لأن كل واحد منهما لا يكون إلا من محتاج أو جاهل، أو من يكون بالصفتين جميعا. ويتعالى الله عن ذلك. وإذا كان هذا هكذا، فلا فضل فى أن يفعل تلك الأشياء عند دعوى الكاذب مع قبحها، وأن هذا الانصراف عن فعل الواجب، وذلك فعل القبيح، ولا فضل بينهما. وان كل واحد منهما لا يجوز على الله عز وجل. على أن هذا أيضا يرجع إلى أنه عز وجل لو أجرى الأمر على ذلك يكون قد انصرف عن الفعل الواجب، لأنه عز وجل أن كان أجرى العادة بتلك الأمور أن يفعلها. فإنه لا يجوز أن يفعلها

---

١ - هو حجر إذا ألقى فى إناء خل فإنه يهرب منه و لا ينزل إلى الخل.

عند دعوى الكاذب، وذلك يجرى مجرى القبيح، وإنما كان يجب على القديم عز وجل، لو كان الأمر على ما ذكرتم أحد أمرين، إما أن يمنعه التمكن منه، أو يدفع ذلك ويظهره بلطائفه، لئلا يصير شبهة، لا يمكن حلها، فلو لم يفعل ذلك لكان قد عاد الأمر إلى أنه لم يفعل ما وجب عليه – تعالى الله عن ذلك.

فإن قيل: ما أنكرتم على من قال لكم: يجوز أن يكون النبى – صلى الله عليه وعلى آله – أخذ هذا القول من نبى كان أتى به، وقبل ذلك النبى، وأخفى حاله، وادعى النبوة به من غير أن كان صادقا فيما ادعى فيه.

قيل له: هذا سؤال قد أجاب بعض العلماء المتقدمين عنه بجوابين: أحدهما: أنه قال: " قد علمنا ضرورة أن النبى – صلى الله عليه – هو الذى أتى به دون من سواه، كما علمنا فى شعر كثير من الشعراء، وكتب كثير من المصنفين، وفى هذا سقوط هذا السؤال، والجواب الثانى: أن ذلك لو كان، لكان شبهة لا يمكن حلها، وما جرى هذا المجرى فيجب على الله عز وجل المنع منه، فيعلم أنه لم يكن ".

ويمكن أن يجاب عنه بأن يقال له: إن ذلك لو كان كذلك، لكان ذلك النبى ممن قد بعثه الله، وكلفه أداء الرسالة، ولو كان ذلك كذلك لوجب على الله عز وجل أن يحفظه إلى أن يبلغ ويؤدى الرسالة، ولو كان بلغ وأدى لكان ذلك لا يخفى.

والجواب المعتمد عندى: غير هذه الأجوبة، وهو أن يقال لمن قال ذلك: فى القرآن كثير من أقاصيص أحوال رسول الله – صلى الله عليه – وأحوال الصحابة – رحمهم الله – وأحوال أعدائه، مثل ما ذكر سبحانه فى السورة التى يذكر فيها الأحزاب من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ ﴾ [1] إلى آخر القصص، وفى هذه السورة ذكر (زيد بن حارثة)[2] وما قال له

---

١ – الأحزاب: ٩

٢ – هو زيد بن حارثة بن شراحيل بن كعب بن عبد العزى، وكان طفلا حين سبى ووقع بيد حكيم بن حزام بن خويلد حين اشتراه من سوق عكاظ مع الرقيق، فأهداه الى عمته خديجة، فرآه الرسول – صلى الله عليه وسلم- عندها فاستوهبه منها فوهبته له، فأعتقه وتبناه، وصار يعرف فى مكة كلها (زيد بن محمد). وذلك كله قبل الوحى.

رسول الله – صلى الله عليه – فى شأن زوجته، وما كان من رسول الله – صلى الله عليه – من التزوج حيث يقول: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾[1] إلى آخر القصة. وفى السورة التى يذكر فيها الأنفال قصة (بدر) من قوله: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾[2] إلى آخر القصة. وفى هذه السورة قصة الأسارى، والمفارقات التى جرت، وفى السورة التى يذكر فيها آل عمران قصة (بدر)[3] وقصة (أحد).

وفى السورة التى يذكر فيها التوبة وقصة (حنين)[4] وقصة (الغار)[5] ولو تتبعنا هذا فى جميع القرآن لطال الكتاب به، ومن المحال أن تكون هذه الأقاصيص بعينها كانت اتفقت لبعض الأنبياء غير نبينا – صلى الله عليه – بمكة والمدينة. ولئن جاز أن يتفق ذلك، لوجب أن يكون نقله ظاهرا، وهذا من أوضح ما يقال فى إسقاط هذا السؤال.

فإن قيل: فهل يجوز أن يكون مثل القرآن مقدورا للجن أو للملائكة ؟

قيل له: لا سبيل لنا من طريق النظر إلى المنع من ذلك؛ لأنا لا نعرف أحوال الملائكة – عليهم السلام – والجن. إلا أنا من طريق السمع،علمنا أنه ليس فى مقدور الجن.

---

١ – ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب: ٣٧]

٢ – ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٧]

٣ – ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٣]

٤ – ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥]

٥ – ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٤٠]

فأما الملائكة – عليهم السلام – فلا يعرف ذلك من حالهم، ولو لم نعرف أحوالهم نحن أيضا لم يقدح ذلك فى كونه معجزا، لأنا إذا عرفنا تعذره على أمر يخفى، كفى فى كونه معجزا، على ما مضى القول فيه.

فأما ما ذهب إليه قوم من أنا قد سمعنا من أحوال الجن، وأشعارهم ما يمكننا الاستدلال به على أنهم على الإتيان بمثله عاجزون، كنحو ما يحكى عن عمرو الجنى من قوله:

أشجـــاك تشتـــت شعـــب الجن. فأنت له أرق وصب ؟

وما يحكى من قوله:

من معذب جذل جاد القريض له حبـــر يحـــير لنـــا بيتـــا علـــى دار

وما يحكى عن بعضهم:

وقبر حـــرب بمكـــان قفـــر وليس قرب قبر حرب قبر

وما روى عن سواد بن قارب[1] من الأبيات التى يحكيها عن بعض الجن وهى:

عجبت للجن وألعابها وركبها العيس بأقتابها

إلى آخر الأبيات. حكايات لم تعرف صحتها، بل ليس لشئ منها سند(٢)، ولا ضعيف ولا قوى، إلا ما يحكى عن سواد بن قارب، وبمثل هذا لا يقع العلم.

والثانى: أن هذه الأبيات، وما جرى مجراها، لو علمنا على التحقيق أنها من قول الجن، لم يمكننا أن نعلم بهذا القدر من أحوال جميعهم فصار الاشتغال به مما لا يجدى، والاعتماد على قول الله عز وجل: ﴿ **قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** ﴾[3] وعلى إجماع الأمة على ذلك.

---

١ – سواد بن قارب سدوسى من بنى سدوس وكان يتكهن فى الجاهلية وكان شاعراً ثم أسلم.

٢ – السند هو الطريق الموصل إلى المتن.

٣ – الإسراء: ٨٨

دليل آخر على أن القرآن معجز:

ومن الدليل على ذلك: أن النبى - صلى الله عليه وسلم وعلى آله - مهما شك فى شئ من أحواله، فلا شك فى صحة عقله، وأصالة ذاته، وشدة حصافته، ووفور ذاتيته، قد علم ذلك المصدق به، والمكذب له، لأن الحال فى ذلك أظهر من أن يجوز أن يرتاب فيه عاقل.

على أن المصدق به يعلم ذلك من حيث يعلم أن الله عز وجل لا يجوز أن يبعث إلى خلقه من لم يكن على تلك الصفة، والمكذب له يعلم ذلك من حيث يظن أنه دبر أحوال نفسه وأحوال أصحابه، حتى تم له ما تم، وقد تلى هو - صلى الله عليه وعلى آله - على أعدائه، وأوليائه على ما تقدم بيانه: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾[1] وتلى عليهم: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[2] وقوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[3] وتلى عليهم: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[4]

وقد علمنا أن العاقل إذا ادعى أمرا، لا يكون مبناه إلا على الصدق، ومجانبة الكذب، ويشتد حرصه على تصحيحه، حتى يتحمل له المشاق ويركب له الأخطار، ويعاديه على ذلك قوم ألباء[5] عقلاء، يرجعون إلى الحصافة التامة، والتمييز الشديد، سيما إذا كان ما يدعيه لا يتم إلا بما يحصل فى النفوس من تعظيمه، وحشمته، لصدق لهجته، ووفور وقاره وهيبته، فلا يجوز مع سلامة الأحوال أن يورد على العدو

---

١ - البقرة: ٢٢-٢٣

٢ - يونس: ٣٧

٣ - يونس: ٣٨

٤ - الإسراء: ٨٨

٥ - جمع لبيب.

الكاشح، والولى المناصح، ما لا يأمن أن يظهر فيه كذبه فى يومه أو غده، أو بعد مدة قصيرة أو طويلة، حتى يفتضح بذلك عند الجميع، ويحتج به عليه أعداؤه، وينفر عنه أصحابه؛ لأن ذلك يجرى مجرى التعرض بتشويه الانسان لنفسه بين أعدائه وأوليائه، مع التماسه منهم تعظيمه وتوقيره، وإكباره وإجلاله مع سلامة الأحوال، وما جرى هذا المجرى، نعلم قطعا أنه لا يقع على وجه من الوجوه.

فإذا ثبتت هذه الجملة فتلاوته – صلى الله عليه – هذه الآيات عليهم لا تخلو من أن تكون من تلقاء نفسه، أو بأمر علام الغيوب، ولا يجوز أن يظن عاقل أنه كان يتلوها عليهم من تلقاء نفسه ؛ لأنه تلاها على قوم هم مثله، أو مقاربون له فى المعرفة بأحوال الكلام وأساليبه، وبأحوال الفصاحة، ولم يكن يجوز أن يأمن أن يأتى عدة منهم، كل واحد منهم بمثله، أما فى الوقت، وأما فى مدة قصيرة أو طويلة فيظهر كذبه ويبين تقوله، ويتسلق به أعداؤه، ويخذله أولياؤه.

فإذا فسد ذلك، صح أنه وارد من عند علام الغيوب تبارك وتعالى، وإذا صح أنه من عنده عز وجل، صح أنه معجز.

فإن قيل: أكثر ما ذكرتموه يكون تغريرا بالجاه، ومن طلب مثل الأمر الذى طلبه فغير ممتنع أن يغرر نفسه، فضلا عن جاهه، لأن التغرير بالنفس أعظم من التغرير بالجاه.

قيل له: التغرير بالنفس أيسر عند من طلب معالى الأمور، من التغرير بالجاه، لهذا تجد كثيرا من الناس يغرر بنفسه فى الحروب للأنفة، وكذلك تجد كثيرا ممن له علو الهمة، ويؤثر إعانة النفس على التشويه بها، على أن التغرير بالنفس أو بالجاه أن اختاره العاقل فليس يختاره إلا إذا لم يكن منه بد فى الأمر الذى يطلبه، فإما إذا كان يعلم أنه يجد منه بدا، أو يغلب فى ظنه، وكان الذى يغلب فى الظن، أن المحذور واقع، فإنه لا يجوز أن يختاره بتة.

ومن المعلوم: أن هذا القرآن لو لم يكن من عند الله عز وجل كان النبى – صلى الله عليه وعلى آله – مستغنيا عن هذه الآيات المخصوصة، وأنه لم يكن يتلوها عليهم،

لأن كثيرا منهم، كان قد أسلم وآمن بسائر ما ظهر عليه من الآيات – على ما نبينه بعد. هذا إن يسر الله سبحانه، وأعان عليه – وكان فى حكم المعلوم: أنه لو لم يكن معجزا ولم يكن من عند الله أنه كان يحصل منهم الإتيان بمثله، لا محالة. ولو وقع لعاد الأمر إلى ما كان يكره، ولم يكن له فى ظاهر الحال فيها فائدة كثيرة ؛ لأن العرب كانت عارفة بحال القرآن، وفائدة التحدى، وكانت تحمله بعده – صلى الله عليه وعلى آله – لسائر الناس – وما يجرى هذا المجرى لا يجوز أن يختاره العاقل مع سلامة الأحوال، فثبت أنها كانت من عند الله عز وجل،على أن ما نعرفه من حكم التحدى، وأنه كان لا بد من حصول المعارضة من القوم، ولم يتعذر عليهم، معلوم لكل عاقل، ومعلوم أيضا: أحوال القوم، وأحواله – صلى الله عليه وعلى آله – بكمال عقله، فلولا أن القرآن من عند الله عز وجل، كان لا يجوز أن يتحدى ذلك التحدى، لعلمه بأنه يؤتى بمثله فى أقرب مدة كما أن إنسانا لو جاء إلى أعدائه، وطلب الترأس عليهم، والتحكم بما شاء فيهم، وأن يكون أولى بأنفسهم منهم، وقال: دلالتى على ما أدعى: أنى أكلمكم اليوم طول نهارى، فلا يمكن لأحد منكم أن يجيبنى، فمن المعلوم إذا كانت الأحوال سليمة، أن لا يدع أحدا منهم أن يجيبه، وأن يكون هو لا يفعل ذلك إذا كان عاقلا سليما، سيما إذا كان مبنى أمره على الصدق، ومجانبة الكذب.

وهذه كانت حال النبى – صلى الله عليه – مع العرب فيما تحداهم به، لولا أنه من عند الله عز وجل.

فإن قيل: ما تنكرون على من قال لكم: أن ذلك كان خطأ من جهة الرأى على ما قلتم، وأن الأولى كان لا يتأتى به، إلا أن الحازم قد يزيل، والمصيب قد يخطئ، والمحلق قد يسف، وإذا كان ذلك كذلك، لم يجب أن يكون ذلك من عند الله عز وجل، وجاز أن يكون من عنده، أتفق على سبيل الخطأ كما يتفق من الناس، ثم اتسق الأمر على مراده، فلم يعارض الاتفاق، كما يتفق فى كثير من الأمـور، أن يخطئ فيه الانسان،فيجرى الأمر مع خطئه على مراده على سبيل الاتفاق.

قيل له: أن الخطأ إذا عظم وفحش حتى يشترك فى العلم به المميز المحصل، والغمر الذى لم يحكم التجارب، بل المراهق الذى لم يبلغ بعد الحلم، لم يجز أن يقع من العاقل المميز الذى له فى التحصيل والتنقير عن الأمور أو فى الحظوظ، ألا ترى أن من يريد تأديب ولده وتهذيبه ويردعه عما لا يحسن، وحمله على طريق الصلاح يجوز أن يمسه بمقارع، فيقع الخطأ فيه، ويتجاوز الغرض المطلوب حتى يوهن بعض أعضائه، ولكن لا يجوز أن يبلغ به الخطأ مع كمال عقله، وسلامة أحواله، حتى يضربه بالسيف ضربة يعلم، أو يغلب على الظن أنها تأتى عليه، وكذلك من يداوى نفسه يجوز أن يخطئ فيرسل على بعض أعضائه العلق، فيزيد ذلك فى مرضه، وألمه. ولكن لا يجوز مع كمال العقل أن يخطئ فيرسل الأفعى على بعض أعضائه على سبيل التداوى، وكذلك يجوز أن يجنى على نفسه، بتناول ما يضره من الأدوية، على سبيل الخطأ، ولكن لا يجوز أن يخطئ فيتناول (الببش) مع علمه به وبصفته وفعله، ونظائر هذا أكثر من أن تعد وتحصى.

فإذا صح ذلك وثبت، فقد علمنا: أن إيراد بهذه الآيات لو لم تكن من عند الله عز وجل لكان من الخطأ العظيم الفاحش الذى لا يجوز وقوع مثله من كامل العقل، لأنه – صلى الله عليه وعلى آله – أتى قوما هم نظراؤه فى النسب، وأشكاله فى اللسان، وأمثاله فى المعرفة بمجارى الأمور، فدعاهم إلى دين كرهوه، وعادوه عليه وناصبوه، ولم يدعوا ممكنا فى مناوأته ألا أتوه، وهو يعلم أن أمره مبنى على صدق اللهجة، ومجانبة الكذب والتنزه عنه، وأن يسير الكذب لو ظهر منه لأدى إلى أفساد حاله، وتوهين أمره، ومكن منه أعداءه، ونفر عنه أولياءه، وهدم ما أسسه، ونشر ما ضمه، ونقض ما شاده، وهو مع ذلك قد ابتدأ أمره يستتب، وحاله ينتظم، وقد آمن به قوم بما ظهر من سائر آياته، وصار أصحابه فى الزيادة.

فإذا كانت أحواله جارية على ما مثلنا، ماضية على ما وصفنا، فمن الخطأ العظيم الفاحش، الذى لا ينفع مثله من العقلاء أن يأتى بأمر أقل ما فيه أن يغلب على الظن أن لم يكن معلوما مقطوعا به أن يفضحه فى أقرب مدة، وأرخى زمان، ويفسد حاله، وتبطل دعوته، ويظهر كذبه.

فإذا ثبت ما ذكرناه وصح وبان: أن هذا القرآن لم يكن من عنده – صلى الله عليه– وإنما كان من عند علام الغيوب جل وتعالى: وعلى أن هذا التحدى لم يقع منه مرة واحدة، أو فى سورة واحدة، فينسب إلى الاتفاق، والغفلة، بل كرره – صلى الله عليه وعلى آله – حالا بعد حال، وأورده فى سور كثيرة، وأمر أصحابه بتلاوته فى جميع القرآن إلى أن اختار الله عز وجل له دار كرامته، لم يتلوم فيه، ولم تضعف نفسه، صلى الله عليه – وما جرى هذا المجرى لا يجوز أن ينسب إلى أنه اتفق على سبيل الغلط والخطأ، وإذا لم يجز ذلك وبان فساده، صح ما قلناه من أنه من عند الله عز وجل.

فإن قيل: ما تنكرون على من قال لكم: أن عدد من كان يكمل لمعارضة القرآن من العرب كان محصورا، لأن من المعلوم: أن كل واحد منهم لم يكن يكمل للإتيان بالكلام الفصيح منظوما كان أو منثورا، ومتى كان ذلك كذلك، فيجوز أن يكون النبي– صلى الله عليه – كان واطأهم على أن يكفوا عن معارضته، وأن يكون القوم جعلوه على ثقة من ذلك حتى وثق بما عاهدوه عليه واعتمدوه لما كان من تمكينه إياهم من أغراض كانت لهم، وأطماعه لهم فى رياسات تحصل لهم، فتحداهم لذلك بانشراح صدر، وقوة نفس.

قيل له: هذا كلام من لا يعرف أحوال العرب وأحوال النبى – صلى الله عليه وعلى آله – لأن العرب كانوا فى ديار متباعدة الأطراف كتهامة، وسائر أرض الحجاز[1] إلى اليمن[2] وشجر وعمان، ونجد والشام، وكان الفصحاء منهم متفرقين

---

١ – الحجاز: حجز بين نجد وتهامة، فيها مكة المكرمة، والمدينة المنورة، وجدة، والطائف، وخيبر، وفدك، وتبوك (ياقوت، معجم ٢ / ٢١٩)

٢ – تعدد اسم اليمن فى كتب التاريخ فهى عند قدماء الجغرافين " العربية السعيدة "وفى العهد القديم " التوراة " يذكر اليمن بمعناه الاشتقاقى اى الجنوب و ملكة الجنوب (ملكة تيمنا) وقيل سميت اليمن باسم (ايمن بن يعرب بن قحطان). وفى الموروث العربى و عند اهل اليمن انفسهم ان اليمن اشتق من " اليمن " اى الخير و البركة و تتفق هذه مع التسمية القديمة " العربية السعيدة " وقال آخرون سمى اليمن يمنا لانه على يمين الكعبة و العرب يتيامنون و الجهة اليمنى رمز الفأل الحسن و لايزال بعض اهل اليمن يستعملون لفظة الشام بمعنى الشمال و اليمن بمعنى الجنوب و تسمى

بحسب تفرق بلدانهم، وتنائى أوطانهم، و النبى صلى الله عليه – يؤمئذ كان فى حكم المنفرد الوحيد إذ لم يكن يساعده على أمره، إلا من كان يؤمن به ويصدقه، ولم يكن صلى الله عليه – واجدا سعة من المال، ولا متمكنا من الرجال، بل كان شريدا طريدا، وجمع كلمتهم، مع تراخى الديار، وتباعد مزارهم، وعدمه – صلى الله عليه – الرسل الذين يوجههم إليهم، بل أى رغبة كانت فيه لطلاب الدنيا وأحوالها، على أنه لو كان مثل كسرى فى كثرة أمواله، وانبساط ملكه، ووفور حاله، وعظم هيبته، مع ما كان يتعلق به من الرغبة والهربة كان لا يتم له ذلك، بل كان يتعذر عليه جمعهم على ذلك، وتقريرهم عليه، فكيف يظن العاقل أنه تم لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله ذلك.

على أن مثل هذا التواطؤ مما لا يصح وقوعه فى العرف، ومجرى العادة، وبه يستدل على صحة الأخبار المتواترة ولولا تعذر ذلك واستحالته من طريق العادة، لكان يجوز أن يشك فى كثير فى مخبر الأخبار المتواترة، وهذا أظهر من أن يحتاج إلى إطالة الكلام فيه، على أن ذلك لو كان، لكان لا يجوز أن ينكتم، بل كان يظهر ظهورا تاما على ما تقدم بيانه، فى باب: التحدى، لأن الدواعى تدعو إلى نشر مثله، والبواعث تبعث على إذاعته، والأغراض تتوفر فى ذلك وتختلف.

على أنه من أين كان يثق بأن من واطأه – لو أمكن ذلك، وكان الطريق إليه مستجيبا – يفى له بذلك ؟ وكيف كان يأمن أن يتغير رأيه، فينقض ما بذله حتى يفتضح بذلك، ويفسد عليه أموره، ويظهر كذبه، وهذا ظاهر الفساد، فبان بهذه الوجوه التى بيناها سقوط ما سألوا عنه فى هذا الباب.

فإن قيل: ما تنكرون على من قال لكم: أن النبى – صلى الله عليه – يجوز أن

اليمن اليوم " الجمهورية اليمنية " تقع اليمن فى جنوب غرب قارة آسيا،فى جنوب شبه الجزيرة العربية ويحدها من الشمال المملكة العربية السعودية ومن الجنوب البحر العربى وخليج عدن ومن الشرق سلطنة عمان ومن الغرب البحر الأحمر، وتوجد لدى اليمن عدد من الجزر اليمنية تنتشر قبالة سواحلها على امتداد البحر الأحمر والبحر العربى وأكبر هذه الجزر جزيرة سقطرى والتى تبعد عن الساحل اليمنى على البحر العربى مسافة ١٥٠كيلو متر تقريباً

يكون ظن أن الإتيان بمثل هذا القرآن يتعذر على وقوعه من حيث علم أحوالهم، ومجارى أمورهم، فأقدم على التحدى، لما غلب من ذلك فى ظنه، لأن العاقل الحصيف قد يقدم على الأمر المظنون بما تقدم على الآمر المعلوم، وفى كون ما ذكرناه جائزا خارجا من خبر الامتناع ما يبطل دعواهم أنه يجب أن يكون من عند الله عز وجل.

قيل له: هذا الظن: ظن لا أمارة عليه: بل لا يجوز حصوله للعاقل المتميز، لأن خلافه هو المعلوم، فالمتعلم أن ما يأتى به الآنسان من أى جنس كان، وأى باب كان فأنه من المعلوم: أنه لا يتعذر الاتيان بمثله على من كان على مثل صفته فى ذلك الشئ، ونحن نعلم أن أولئك العرب كانوا مثل النبى – صلى الله عليه وآله – فى المعرفة بأحوال الكلام، وطرقه، وجيده ورديئه، وفصيحه ومتوسطه، أو مقاربين له فى ذلك، ومن كان كذلك، فمن المعلوم أنه لا يتعذر عليه الاتيان بمثل ما أتى به، والعلم بهذا طريقه الضرورة، فلا يصح أن يقال أنه – صلى الله عليه – يجوز أن يكون عدمه، وإذا كان ذلك معلوما فلا يجوز أن يظن العاقل خلافه، لأن ذلك يصير من ظنون السودوس، الزائلين عن كمال العقل، ونحن بينا دليلنا هذا، على أن النبى – صلى الله عليه – كان كامل العقل، وافر التحصيل، صحيح التمييز، على أن النبى – صلى الله عليه – لم يتحد به قومه، الذين هم قرابته فقط، بل عم بالتحدى جميع العرب، بل جميع البشر، فلو جاز أن يظن الانسان أنه – صلى الله عليه وآله – ظن ذلك بقومه لمعرفته بكثير من أحوالهم، وبواطن أمرهم على بعد ذلك، فكيف يظن أنه ظن ذلك بسائر العرب مع كونه متباعدا عن ديارهم، متنائيا عن ضبط أحوالهم، وفيهم مثل: لبيد بن ربيعة[1]، وكعب بن زهير، الذى جاءه – صلى الله عليه – والأعشى، وحسان، وغيرهم من الفصحاء المشهورين.

---

١ – هو أبو عقيل لبيد بن ربيعة بن عامر بن مالك العامرى من أهل عالية نجد، كان من شعراء الجاهلية وفرسانهم، وهو أحد أصحاب المعلقات. قدم على النبى – صلى الله عليه وسلم – مع قومه فأسلم وحسُن إسلامه، ونزل بالكوفة ومات بها فى خلافة عثمان، وقيل إنه مات فى أول خلافة معاوية سنة ٤١ هـ وله من العمر ١٥٧ عاماً (الإصابة ٣: ٣٢٥، الأعلام ٥: ٢٤٠).

وإذا ثبت أن الأحوال كانت على ما ذكرناه، صح ووضح أنه – صلى الله عليه وآله – لم يكن يجوز أن يظن ذلك، لو كان القول من عنده، إذ كان يجب أن يكون المعلوم بخلاف ذلك، وفى بطلان ذلك دليل على أن النبى – صلى الله عليه – كان عالما بتعذر ذلك عليهم، لكونه من عند الله عز وجل.

فإن قيل: يجوز أن يكون – صلى الله عليه وعلى آله –ظن أن القوم يكفون عن الاشتغال بالإتيان بمثله، وان لم يكن متعذرا عليهم، فبنى أمر التحدى عليه.

قيل له: هذا الظن حصوله للعاقل أبعد وأشد استحالة من الظن الذى بعد التحدى عنه، أولاً: لأنا قد بينا فيما تقدم أنه معلوم بكمال العقل: أن من أتى قوما هم أمثاله ونظراؤه فى النسب والمحل، وادعى رئاسته عليهم، وأنهم يلزمهم الانقياد له، وقبول طاعته، وهم له كارهون، قد أظهروا له البغضاء والعداوة، واحتج عليهم بأمر يمكنهم مقابلته بمثله من يغر ضرر يلحقهم، فإنه لا يجوز منهم الكف عن ذلك على وجه من الوجوه.

يكشف ما قلنا فى جواب السؤال وما قبله: أنا نعلم أن واحدا من علماء عصرنا هذا من فقيه أو متكلم، أو أديب أو متطبب إذا كان فى بلد فيه وفيما حوله عدة من نظرائه فيما يتعاطاه أو مقاربين له مع ظهور بعضهم له، وكراهتهم رياسته عليهم وانتصابهم لعداوته، وركوبهم الصعب والذلول فى ذلك. فإنه لا يجوز متى كان عاقلا لا آفة به أن يظن أن يطلب الرئاسة عليهم وتصريفهم على أوامره ونواهيه بأن يحتج به عليهم ويتحداهم به، وهم متمكنون من مقابلته بمثل ما احتج وأورد بأهون سعى، فلا يقع منهم، ولا يختارون فعله، بل يكفون عنه.

وإذا ثبت ذلك، صح أن ما ذكروه من جواز حصول مثل ذلك الظن باطل وأنه – صلى الله عليه – أنما تحداهم بما أورده عليهم بأمر علام الغيوب، ومع العلم أنه متعذر عليهم.

فإن قيل: فجوزوا أن يكون النبى – صلى الله عليه وعلى آله – عرف ذلك من جهة بعض الأنبياء، وأن يكون وقع إليه أنه أخبر عن حاله، وحال القوم معه بأن

يكفون عن معارضته، فاعتمد ذلك، وبنى أمر التحدى عليه لعلمه بصحته، وأن أصل ذلك الخبر من عند الله عز وجل.

قيل له: هذا الذى ذكرت لو كان، يزيد أمره – صلى الله عليه – قوة رغبة، وتأكيدا، وكان ذلك ضربا من التبشير به، وذلك أن ذلك النبى لو أخبر أن القوم يكفون عن معارضته، وأحوالهم على ماوصفنا، لكان لا يخلو ذلك الكف من أن يكون منهم على سبيل الاختيار، ولأن الإتيان بها كان متعذرا عليهم، ولأن الله عز وجل صرفهم عنها ببعض لطائفه، وقد ثبت أن الكف على سبيل الاختيار منهم مما يستحيل، ولا يصح كونه فلم يبق إلا أنه كان للتعذر أو للصرف، وأيهما كان وجب كونه معجزا، دالا على نبوته، فتقدم خبر نبى – أن تقدم – يكون بشارة له بأن الله عز وجل بعثه نبيا، ويظهر عليه العلم الذى يدل على نبوته.

فإن قيل: فإذا ثبت أنه من عند الله عز وجل. فما الذى يدل على أنه معجز ؟ لأن التوراة والإنجيل، وأن كانا منزلين من عند الله، فلا يجب كونهما معجزا؟

قيل له: إذا ثبت بما بيناه تعذر مثله على الناس ثبت كونه معجزا كما بيناه فى الدليل الأول.

فإن قيل: إذا كان هذا الدليل لا يتم إلا بذكر التحدى، وبيان تعذر مثله، وعليه بنى الدليل الأول، فلم جعلتم هذا دليلا ثانيا ؟

قيل له: هذان الشرطان، وان جمعا الدليلين، فلكل واحد منهما شرط يخصه، لأن الدليل الأول لا يتم إلا بأن العلم أن المعارضة لم تقع، وهذا لا يجب أن يشترط فى الدليل الثانى، لأن الدليل الثانى يصح أن يستدل به.

وقيل: النظر فى أن المعارضة وقعت، أو لم تقع حين يكون حصول العلم بأن المعارضة لم تقع بعد استكمال النظر فى الدليل، ووقوع العلم به، والدليل الأول ليس من شروطه أن نبين أن كامل العقلاء، لا يجوز أن يقع منه من تلقاء نفسه مثل هذا التحدى، ولا يجب اشتراطه فى الدليل الأول. والدليل الثانى لا يتم إلا باشتراطه

لأنه مبنى عليه. وإذا كان لكل واحد من الدليلين شرط يخصه – ولا يتم الدليل إلا بشرطه – لما صح كونهما دليلين، وأن جمعتهما شروط أخر.

دليل آخر على أن القرآن معجز:

ومن الدليل على ذلك: أن النبى – صلى الله عليه – ابتدأ الإتيان بهذا القرآن على غاية الإحكام والإتقان، وقد ثبت جريان العادة، أن كل أمر يقع على وجه لا يصح وقوعه عليه إلا بعلوم تحصيل للفاعل له لا يصح وقوعه ابتداء على غاية الإحكام والإتقان، وأن بلوغه الغاية يتعذر إلا على مر الدهور والأعصار، وتعاطى جماعة فجماعة له، وأنه لا فرق فى ذلك من شئ من الأمور التى هى منظوم الكلام ومنثوره، أو ما يتعلق بالتنجيم أو الطب أو الفقه أو النحو أو الصناعات التى هى النساخة أو الصياغة أو البناء أو ما أشبه ذلك.

فإذا ثبت ذلك وثبت وقوع القرآن على الوجه الذى بيناه ثبت أنه وقع على وجه انتقضت به العادة، وما وقع على وجه تنتقض به العادة، وجب كونه معجزا، وجرى مجرى قلب العصا حية، وإحياء الموتى والمشى على الماء والهواء.

فإن قيل: ولم ادعيتم أن القرآن وقع على غاية الأحكام والإتقان ؟

قيل له: قد علمنا ذلك. كما علمنا فى غيره مما بلغ الغاية فى بابه، وذلك كما علمنا أن التنجيم بلغ الغاية فى أيام بطليموس[1]، وأن الهندسة قد بلغت الغاية فى أيام إقليدس، وأن الطب بلغ الغاية فى أيام جالينوس، وأن الشعر بلغ الغاية فى أيام امرئ القيس، والنابغة وزهير[2] والأعشى، وأن النحو بلغ الغاية فى أيام سيبويه

---

١ – بطليموس: العالم الفلكى والرياضى اليونانى، الذى سيطرت نظرياته وتفسيراته الفلكية على الفكر العلمى حتى القرن السادس عشر، عرف بطليموس فى مساهماته فى حقل الرياضيات والبصريات والجغرافيا وهو صاحب مؤلفات فى الرياضيات منها " كتاب المجسطي" المعروف فى اللغة العربية. (الموسوعة الثقافية، كتاب الشعب، مؤسسة دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٢ م)

٢ – هو زهير بن أبى سلمة، واسم أبيه ربيعة بن رياح بن قرة المزنى من مضر. ولد بنواحى المدينة ونشأ بين غطفان بالحاجر من ديار نجد، شارك فى إنهاء حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان ومدح داعيى السلم، وهو أحد أصحاب المعلقات. توفى سنة ١٣ ق. هـ (الأعلام ٣: ٥٢).

والخليل، وأن الخط بلغ الغاية فى أيام ابن مقلة، وكذلك سائر الصناعات والمهن، وكان الطريق إلى الجميع: أنا قد علمنا من حال كل واحد ممن تعاطاه، بأن كل من حاوله، وتعاطى مثله أما أن يكن قصر عنه قصورا بينا، وبعد بعدا متفاوتا، أو قاربه أو زاد عليه شيئا زيادة كانت يسيرة لا يؤبه لمثلها، فدلنا ذلك على أن جميع ما ذكرناه وقع على غاية الإحكام والإتقان فى بابه فى الأوقات التى ذكرناها.

فإذا ثبت ذلك وثبت أن القرآن لما أتى به النبى – صلى الله عليه – حاول كثير من الناس الإتيان بمثله فقصروا عنه قصورا ظاهرا،وسقطوا دونه سقوطا فاحشا، عرفه من أنصح نفسه، ولم يجحد ما تصوره، فأما من عاند وتواقح، فأنه أدعى المقاربة، وأوهم الأغمار المماثلة، ولم يدع أحد أنه يبرز عليه، ويطلب وراءه أمرا للمزيد، ولوضوح الأمر فى بلوغه الغاية، ولحوقه درجة النهاية، فكان وقوعه على غاية الإحكام والإتقان، وأوضح من سائر ما ذكرناه، لن عامة ذلك قد زيدت عليه زيادات على مقادر احتمال الصنعة،والقرآن ارتفع عن ذلك ارتفاعا حسم المطامع عن ابتغاء المماثلة، فكيف ابتغاء الزيادة، فصح بذلك ما ادعيناه، ووضح ما ذكرناه.

على أنه لو ثبت أن وراء غاية القرآن غاية يترتب وقوعها مزيدا يطلب. لم يقدح ذلك فى استدلالنا هذا. لأنا قد علمنا أنه لما حصل ووقع لم يكن وقوعه على أدنى مراتب الكلام وأضعف وجوهه، بل كان متجاوزا لذلك شأوا بعيدا، وأمدا مديدا.

وهذا القدر كاف فى وقوعه على وجه انتقضت به العادة. على أنا نقول لهذا السائل: أن كنت تعرف شيئا من الأشياء بلغ الغاية فى مجرى العادة فأبن عنه لنوضح بمثله أن ما ادعيناه فى حال القرآن أوضح من ذلك، ولسنا نريد بالغايات التى ذكرناها فى هذه المواضع أجمع، الغاية التى لا تكون فى المقدور أو المعلوم، ما يزيد عليها، وإنما نريد ما يسمى غاية، ويعد نهاية فى مثله، من طريق العادة، فليكن ذلك مقصورا عند الناظر فى كلامنا هذا. فأن المدار عليه، والغرض ينتهى عليه.

فإن قيل: ما تنكرون على من قال لكم: أن ما ادعيتموه من النبى – صلى الله عليه – ابتداء، الإتيان به لا يصح، لأن الفصاحة لم يكن هو – صلى الله عليه – ابتدأها،

بل كانت متقادمة العهد، متداولة العرب، قد استمرت عليها الأعصار، وتصرفت فيها الأفكار ؟

قيل له: لسنا نزعم أن الذى اختص به القرآن هو الفصاحة فقط، حتى يلزمنا ما ذكرتموه، وإنما نقول: إن الذى اختص به هو هذا النظم المخصوص، والأسلوب المتميز واقعا فى أعلى طبقات الفصاحة وإذا كان هذا هكذا، ولم يعرف للعرب قبله – صلى الله عليه – هذا النظم المتميز عن غيره، صح ما قلناه من أنه ابتدأ به على الغاية فى معناه.

فإن قيل: إلى ماذا تشيرون بقولكم: هذا النظم المخصوص، والأسلوب المتميز، فأنا لا نعقل فيه أمرا زائدا على الكلام المعتاد، ولم نعرف تميزا إلا بالفصاحة ؟

قيل له: نريد بذلك ما نعرفه، ويعرفه كل متأمل كلام العرب، لأن كلامهم أجمع لا يخلو من أن يكون موزونا أو غير موزون، فالموزون تختلف أجناسه، ويتميز قصيره عن رجزه، وكل ذلك مما يعرفه أهله، وما ليس بموزون منه ينقسم أربعة أقسام، منها نظم الخطب وطريقتها،ومنها نظم الترسل ومنهاجه، ومنها أسجاع الكهنة، ومنها المحاورات التى تجرى بين الناس، ملفوظا بها ومكتوبا فى منافع الدين والدنيا ومضارهما، وما ينطوى على الجد والهزل، ووجدنا أسلوب القرآن ونظمه مفارقا لهذه الأساليب أجمع، لأنه ليس من نظم الخطب، ولا الرسائل ولا أسجاع الكهان،ولا المحاورات، يعرفه كل من تأمله، ممن ليس له أيسر حظ من المعرفة لكلام العرب.

فإما بيان أن الأعجاز تعلق بهذا الأسلوب المخصوص واقعا فى أعلى طبقات الفصاحة، فسيجئ بعد الفراغ من إيضاح هذا الدليل، أن يسر الله عز وجل، وسنفرد له فصلا، فأنه باب عظيم لا يستغنى عنه.

فإن قيل: ما تنكرون على من قال لكم: يجوز أن يكون النبى – صلى الله عليه وآله – أدار القرآن فى نفسه، نحوا من خمسة وعشرين سنة، من حين بلغ إلى أن بعث حتى رتبه ونقحه وهذبه، ثم أظهره على ما هو عليه من الغاية ؟

قيل له: ذلك مما لا يصح. لأن القرآن ليس دون الأشعار، والرسائل. وقد علمنا: أن الشعر لم يبلغ الغاية فى هذا القدر من الزمان، ولا برجل واحد، وكذلك الرسائل، وكذلك سائر الصناعات، وأن العادة جارية بأن كل من ابتدأ صناعة، وابتكرها لا يتسع لبلوغ آخرها فى مقدار عمره، وانها لا تبلغ الغاية إلا بأزمنة تتصل، وبجماعات يقتدى بعضهم ببعض، ويستعين بعضهم بخواطر بعض، ويبنى الخالف على ما أسسه السالف، فوضح بذلك سقوط هذا السؤال.

فإن قيل: أن الخليل بن أحمد، ابتدأ العروض فأورده على غايته ولم يدل ذلك عندهم على انتقاض العادة، فما أنكرتم أن يكون القرآن مثل ذلك؟

قيل له: أن العروض هو ضرب من تقطيع الأصوات وترتيبه، وقد سبقه بذلك صاحب المسيقى، وبلغ الغاية فيه،

وقد سمعنا من كان يعرف اللغة السريانية يذكر أن للأشعار المعمولة على ذلك اللسان عروضا قد عمل، ويجوز أن يكون الخليل بنى على تلك الطريقة، ولا يكون له إلا بتتبع أشعار العرب، وعد أجناسها، وردها إلى الوزن مقتفيا به ما ذكرناه، ثم قد سقط عنه أوزان وأضرب منها الوزن المسمى، " ركض الخليل " وقد جاء عليه الشعر المنسوب إلى عمر الجنى وهو:

أشجاك تشتيت شعب الجن فأنت لـــه أرق وصـــب ؟

وهى قصيدة طويلة.

وفى المحدثين من عمل على ذلك. فقال قصيدة طويلة أولها:

أنسيت أفعالهم السمحا فـأراك تـذكـرهم لهجا

وسقط عنه أيضا ضرب من الوزن المسمى بالمنشرح وهو أن يقع فى القافية (مفعولات) بدل (مفتعلن) وقد جاء على ذلك أشعار كثيرة، وتتبع هذا مما يخرجنا عن غرض كتابنا هذا، وفيما أشرنا إليه كفاية.

فبأن بما ذكرناه: أنه لا يصح أن يقال: أن الخليل أورد ذلك ابتداء على الغاية، كما

أورد النبي- صلى الله عليه – القرآن مبتدئا به، ومبتكرا له على الغاية فى معناه، فسقطت المعارضة.

فإن قيل: ما تنكرون على من قال لكم: يجوز أن تكون أكثر هذه الصناعات لم تبلغ الغاية برجل واحد، لأن العناية بها لم تتم،والدواعى إليها لم تقو، والبواعث عليها لم تتوفر. وإذا كان كذلك جاز أن تكون دواعى النبى – صلى الله عليه وآله – إلى إيراد القرآن على هذه الصفة توفرت وبواعثه عليه قويت، فأتى به، وأن لم يتفق لأحد قبله ما جرى هذا المجرى، ومتى جوزتم ذلك بطل ما اعتمدتموه، من أنه وقع على وجه انتقضت به العادة ؟

قيل له: هذا الذى ذكرتموه مما لا نجيزه، لأن تجويز مثله يؤدى إلى أن يلتبس ما هو متعذر، بما لا يتعذر، وإلى أن لا يكون بينهما فرق، وقد ثبت الفرق بينهما، فوجب بطلان هذا السؤال، ألا ترى أن ذلك لو جاز لجاز لقائل أن يقول: جوزوا أن يكون واحد من الأطباء لم تقو عنايته، ولم تتوفر بواعثه، حتى يبلغ إلى حيث يحيى الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص، وأنه لا يستحيل أن يبلغ بعض الأطباء بعنايته، ووفور دواعيه، وقوة بواعثه، ولجاز للآخر أن يقول: جوزوا أن يكون أحدا من السحرة المشعبذين لم تبلغ به قوة دواعيه، وبواعثه إلى أن يبلغ مبلغا، ثم أن قلب العصا حية، ضرب من الحيل، وأنه من الجائز المتوهم أن يبلغه بعض السحرة والمشعبذين، وكذلك يجوز ذلك فى سائر الصناعات، فلما علمنا بطلان قول من يجيز ذلك، ويشك فيه، وجب بطلان ما سأل عنه السائل فى هذا الباب.

فإن قيل: الفرق بين ما ذكرتم، وبين ما سألنا عنه ظاهر، لأن الذى ذكرتموه ليس جنسه، فى مقدور العباد، وما سألنا عنه جنسه فى مقدور العباد.

قيل له: عن هذا جزئيين:

أحدهما: أنا عرفنا الفرق بين ما يكون جنسه فى مقدور العباد، وبين ما لا يكون جنسه فى مقدورهم، بأن عرفنا ما قلناه. أن جنسه ليس فى مقدور العباد علينا على كل وجه، وسؤالكم هذا يؤدى إلى أن لا يصح لنا العلم بالفرق بين ما يتعذر علينا،

وبين ما لايتعذر، وذلك يؤدى إلى أن يفسد علينا الطريق الذى به نعرف الفرق بين ما يكون جنسه فى مقدور العباد، ومالا يكون، وكل سؤال يؤدى إلى إفساد ما لا يتم ذلك السؤال إلا به يجب أن يكون فاسدا.

والجواب الثانى: أنه لا فرق فى هذا الباب بين ما يكون جنسه فى مقدور العباد، وبين ما لا يكون جنسه فى مقدورهم، ألا ترى أنه كما لا يجوز أن يبلغ الإنسان بقوة دواعيه، ووفور بواعثه،وشدة عنايته إلى أن يحتال حتى يطير كالنسر أو العقاب، وأن كان الطيران جنسه فى مقدورنا لأن ذلك ليس أكثر من أكوان واقعة على وجوه مخصوصة، وكذلك لا يجوز أن يحصل الانسان بشئ من ذلك إلى أن ينقل بعض الجبال الراسيات عن مواضعها، وأن كان جنسه فى مقدورنا، ونظائره، أكثر من أن تحصى.

فبان أن القول بما يؤدى إلى أن يلتبس ما يتعذر بما لا يتعذر مما لا يصح، ويجب بطلانه، وسواء قيل ذلك فيما يكون جنسه تحت مقدورنا، أو لم يكن، على أن الذى قالوه لو كان صحيحا لأدى إلى أن لا تقع الثقة بشئ من المعجزات، وما جرى هذا المجرى من الشبه التى لا يمكن حلها، يجب على القديم عز وجل المنع منه، على ما سلف القول فيه، فكان يجب عليه عز وجل أن لا يقع ايراد مثله ابتداء للغاية، أو يمنع أن يأتى به المتخرص على وجه ينقض العادة.

فإن قيل: هذا الذى بنيتم استدلالكم عليه فاسد، لأنه يؤدى إلى أن السبق إلى الشئ يوجب كونه معجزا وقد علمنا فساده، لأن أمورا كثيرة تتجاوز الاحصاء والعد، قد وقع إليها السبق، كالصناعات والمهن وما يجرى مجراها، وكثير من العلوم، وليس يكون شئ من ذلك معجزا.

قيل له: من تأمل كلامنا لم يسأل هذا السؤال، لأنا لم نقل: أن الابتداء بالقرآن فقط، يدل على أنه معجز، وإنما قلنا: أنه وقع على وجه انتقضت به العادة. لأن العادة جارية بأن الأمر المبتدأ به لا يجوز وقوعه على الغاية فى الباب المقصود إليه، وأوضحنا ذلك، وكشفنا عن صحة ما قلناه.

ثم قلنا: وقد وقع القرآن ابتداء على الغاية فى المعنى المقصود إليه فوجب أن يكون وقوعه على وجه يوجب نقض العادة، وذلك يوجب كونه معجزا،وليس هذا من السبق المجرد إلى الأمر فى شئ، بل هو جار مجرى من لا يحفظ اليوم شيئا من القرآن، ثم يجده فى اليوم الثانى حافظا له وللقراءات ولوجوه القراءات، وفى أنه يجب أن يكون معجزا لأن حفظه وقع على وجه انتقضت به العادة، ولا يزلمها على ذلك القول بأن مجرد الحفظ للقرآن وللقراءات ووجوهها معجز، وكذلك القول فى سائر الحروف والصناعات وأصناف العلوم، فوضح سقوط هذا السؤال عما اعتمدناه فى هذا الباب.

فإن قيل: دليلكم هذا يقضى جواز وقوع الاتيان بمثل القرآن على مر الأعصار، وامتداد الأزمان، لأنكم إنما قلتم: أن مثله لا يجوز الابتداء به، والدليلان المتقدمان يقضى كل واحد منهما: أن الاتيان بمثله لا يصح، وعلى هذا إن صح واحد من الدليلين المتقدمين، فيجب فساد هذا الدليل، وإن صح هذا الدليل، وجب فساد الدليليين المتقدمين، فيجب فساد هذا، وأنتم قد اعتمدتم الأدلة الثلاثة وصححتموها. وذلك متعذر.

قيل له: هذا غلط ظاهر وقلة تأمل. لتراتيب أدلتنا، لأن الدليلين يوجبان أن الإتيان بمثل القرآن لا يصح، ولا يجوز، وإن كان قد حكى عن قوم، أنهم ذهبوا إلى أن التحدى وقع خاصا فى ذلك العصر، وأنه إن أتى بمثل القرآن بعد ذلك لم يقدح فى كونه معجزا.

والدليل الثالث: لم يتضمن جواز الاتيان بمثله بعد ذلك، وإن كان لم يتضمن وجوب تعذر الاتيان بمثله كما تضمنه الدليليين فلا تناقض بينه وبين الدليليين المتقدمين فلم امتنع أن يشتمل جميعها على صحته كما ظنه السائل ؟

ومثال ذلك: أن المستدل على حدوث الأجسام بأنها لم تسبق الأعراض الحادثة، يصح له مع ذلك أن يستدل على حدوثها بأنها لم تسبق الأحوال المتجددة، ويصح الاعتماد على الدليليين، وإن كان الدليل الأول يتضمن إثبات أعيان حادثة، والدليل

الثانى لا يتضمنه، لأن الدليل الثانى وان لم يتضمن اثبات أعراض حادثة فلم يتضمن أيضا نفيها، ولم يمتنع أن يكون كل واحد منهما دليلا صحيحا مستقلا بنفسه.

فكذلك أدلتنا فى إعجاز القرآن وإن كان بعضها يتضمن وجوب مالا يتضمن وجوبه بعضها إذ لا يتضمن نفيه.

يوضح ذلك: أن القرآن لا يمتنع أن يكون معجزا لوجهين.

أحدهما: لا يتم إلا بأن يتعذر الاتيان بمثله على جميع البشر إلى آخر الدهر.

والوجه الثانى: يتم تعذر ذلك مع تراخى الزمان أو لم يتعذر ؟

الفصل الخامس
الكلام فى بيان ماله كان معجزا

إعلم أن ما فيه من الأخبار عن الغيوب لا إشكال فى كونه معجزا لأن مثله لا يجوز أن يصدر ألا عن علام الغيوب، وسنفرد لذلك كلاما بعون الله، وأما ماله كان معجزا من غير هذا الوجه، فقد اختلف فيه على ما نبينه، وهذا الاختلاف لا يقدح فى الدليلين اللذين قدمنا ذكرهما، لأن واحدا منهما لم يبن على وجه مخصوص، مما اختلف فيه.

وإنما بنينا الدليل الثالث فقط على وجه مخصوص، مما اختلف فيه، لأنه مبنى على أنه صار معجزا للنظم المخصوص واقعا فى أعلى طبقات الفصاحة على ما مضى القول فيه، فأى وجه من الوجوه التى اختلف فيها صح لم يقدح فيما قدمناه من الدليلين، وذلك أنهما مبنيان على أنه قد تعذر على العرب الإتيان بمثله، على وجه انتقضت به العادة فلأى وجه كان التعذر لم يؤثر ذلك فى كونه معجزا، ألا ترى أن نبيا من الأنبياء لو أتى بما يتعذر لجنسه أو صفته أو لأية صفة كانت صفاته، أو لأن الخلق أجمع صرفوا عنه، على أى وجه حصل الصرف، لأن الذى يتم به كونه معجزا هو حصول التعذر على وجه تنتقض به العادة، فكذلك ما قلناه فى وجوه إعجاز القرآن.

فإن قيل: ما تنكرون على من قال لكم: إذا كان كل واحد منكم يطعن فى الوجه الذى يعتمده صاحبه فى بيان الوجه الذى كان له القرآن معجزاً، ويبين فساده، فليس يثبت شئ من تلك الوجوه، وإذا بطلت تلك الوجوه أجمع لم يصح كونه معجزا، لأنه لا يكون معجزا إلا لوجه يخصه.

قيل له: الصحيح لا يفسد لطعن من يطعن فيه، أو يحاول إفساده، فإذا ثبت ذلك لم يجب فساد تلك الوجوه أجمع، ولم يمنع أن يكون فى جملتها وجه صحيح لا يؤثر فيه طعن من يطعن، وإذا ثبت ذلك صح ما ادعيناه من كونه معجزا على ما بيناه، وإن اختلف فى الوجه الذى له كان معجزا.

ونعود إلى ذكر الوجوه التى ادعى أن أعجاز القرآن يتعلق بها، ونبين ما نعتمده منها. أعلم أن من الناس من ذهب إلى أن القرآن لم يتعذر الإتيان بمثله لشئ من أوصافه.وإنما الإعجاز هو الصرف. ومنهم من قال: أن الإعجاز هو الفصاحة المجردة، وأنها قد بلغت الحد الذى يتعذر الإتيان بمثلها على جميع البشر، وهذا قول الأكثرين من المتكلمين.

ومنهم من ذهب إلى أن الإعجاز، إنما هو فى النظم المخصوص الذى يميز به القرآن عما سواه.

ومنهم من ذهب إلى أن الإعجاز فيهما جميعا، أعنى النظم مع الفصاحة البالغة أعلى طبقات الفصاحة، وهذا هو الذى يصح عندى، ويتضح لدى.

على أن من قال بالصرف لا بد له من الرجوع إلى بعض هذه الوجوه، لأن الصرف عنده لم يقع عن جميع الكلام، وإنما وقع عن كلام له صفة مخصوصة، وتلك الصفة لا بد من أن تكون هى: الأسلوب أو الفصاحة، أو هما جميعاً.

والكلام فى الصرف يأتى بعد هذا الموضع. والذى يبين صحة ما اخترناه، وادعينا صحته، أنه لا يخلو من أن يكون الإعجاز فيه تعلق بالأسلوب المجرد، أو الفصاحة المجردة، أو بهما جميعا، ولا يصح ادعاء من يدعى تعلقه بالنظم أى الأسلوب فقط، لأنا نعلم ضرورة أن تميز نظم القرآن عن سائر أساليب الكلام المنثور كأسلوب الخطب، وأسلوب الرسائل،وأسلوب كلام الكهنة وأسجاعهم، وأسلوب المحاورات، ليس أكثر من تميز بعض الأساليب عن بعض.

وقد علمنا أن من يقدم فى بعض هذه الأساليب حتى بلغ فيها الغاية. ولا يجوز أن يتعذر عليه الأسلوب الآخر، حتى لا يمكنه أن يأتى بشئ منه، وأن لم يمكنه التصرف فيه، وبلوغ الغاية، كما أمكنه فى النظم الآخر.

يبين ذلك: أن الخطيب المصقع، وإن تعذر عليه إنشاء الرسائل على الغاية التى يطلب لها، فليس يتعذر عليه جملة، بل لا بد من أن يتمكن من إنشائها فى الطبقة الدنيا أو الوسطى، وكذلك من تقدم فى صناعة الرسائل، هذه حكمة فى الخطب، وكذلك المقدم فى المحاورات، المتناهى فيها، فإذا ثبت ما بيناه ووضح أن من تقدم وبرع فى بعض هذه الأساليب حتى فاق نظراءه، وقرع أكفاءه، لا يتعذر عليه الإتيان بأسلوب القرآن فى الطبقة الدنيا، فصح بما بيناه أنه لا يمكن أن يقال: أن الإعجاز تعلق بمجرد النظم.

ولا يمكن أن يقال: تعلق بمجرد الفصاحة، لأن ذلك لا يتم إلا بأن تعلم أن القرآن قد بلغ فى الفصاحة مبلغا، تجاوزت الحد الذى يتمكن منها البشر تجاوزا انتقضت به العادة، ولا يمكن ادعاء هذا العلم، لأنه لا يخلو من أن يكون ضرورة أو مكتسبا، ولا يجوز أن يكون ضروريا، لأن ذلك لو كان كذلك لاشترك فيه جميع من له قدم فى اللغة وحظ من العلم بمواقع كلام العرب، والأمر بخلاف ذلك، لأن مثل ذلك فى التمييز فيه، وفى غيره من الكلام، وفى سائر الصناعات يجب أن يكون طريقة الضرورة.

فإذا ثبت بما بيناه أن ادعاء التعذر فى كل واحد من الأمرين لا يمكن ولا يصح، ثبت أن الإعجاز تعلق بمجموعها، لأنا قد علمنا تعذر الإتيان بمثله على العرب بما أثبتناه وأوضحناه فى كتابنا هذا، والصفتان جرتا مجرى واحدا، أعنى النظم والفصاحة فى الميل إلى التعذر، فوجب القول: بأنه تعذر الإتيان بمثل القرآن فى الصفتين جميعا، فصح ما ذهبنا إليه.

فإن قيل: ما تنكرون على من قال لكم: أنا وإن لم نعلم الآن ضرورة أن القرآن

قد بايـن سـائر كـلام العـرب فى الفصـاحة مبـاينة انتقضت بها العادة، فإنا نجوز أن يكون العرب اللذين كانت المعرفة لهم بذلك جبلة وطبيعة، عـرفوا ذلك ضرورة.

قيل له: تجويز ذلك لا يؤيد صحة ما ادعيتموه: لأن الذى بنى عليه الدليل: لا يعنى فيه التجويز، وإنما يجب أن تثبت فيه الصحة على القطع حتى يصح الدليل الذى بنى عليه،و أنتم لم تثبتوا صحته ولا يستقيم سؤالكم.

فإن قيل: ما أنكرتم أن يكون من تأمل قول الله عز وجل: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1] وقوله سبحانه: ﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴾[2] وقوله عز وجل: ﴿ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ۝٢٨ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ۝٢٩ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ۝٣٠ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ﴾[3] عرف ما ادعيناه، من أن فصاحة القرآن، وقعت على وجه انتقضت به العادة.

قيل له: نحن لا ننكر أن ألفاظ هذه الآيات جزلة واقعة فى أعلى طبقات الفصاحة من جهة الجزالة، إلا أن بين أن يكون الكلام كذلك، وبين أن تنتهى فصاحته إلى حيث تنتقض العادة: بون، وهذه الآيات لا يكاد يذكرها إلا المتكلم الذى لا يتصور من أقسام الفصاحة إلا جزالة اللفظ.

وذلك لعمرى قسم منها عظيم الموقع، وإن كانت أقسام الفصاحة كثيرة متنوعة على ما نذكرها ونبينها بعد الفراغ من هذا الفصل، وإنما صار هذا القسم يشترك فى العلم به من خفت بضاعته فى معرفة كلام العرب، أو توفرت، لأن لها حلاوة تدرك من جهة السمع، كما أن للألوان المخصوصة كالصفرة والخضرة، ونحوهما: حلاوة، تدرك من جهة البصر، وكذلك ما يختص سائر الحواس، وليس كذلك سائر أقسام

---

١ - هود: ٤٤

٢ - النجم: ١-٤

٣ - الواقعة: ٢٨-٣١

الصناعات، لأن العلم بها مفتقر إلى العلم بطرائق العرب فى منظوم كلامهم، ومنثوره، وجهات تصرفهم فيها، وكثير من أحوال لغاتهم وعاداتهم فى إيرادها.

وهذه أبواب لا يستقل بمعرفتها من لم يكن مطبوعا عليها، إلا أن ينال منها حظا جزيلا، وقسما وافرا.

فإن قيل: ما تنكرون على من قال لكم: أن النبى – صلى الله عليه – قد تحدى القرآن، وعلمنا ذلك من حاله، ولم يثبت أن النظم كان مقصودا بالتحدى، وإذا لم يثبت ذلك، ثبت أنه لا بد من وجه يكون هو المقصود بالتحدى، ثبت أن ذلك الوجه هو الفصاحة فقط، فبطل قول من يقول: أن النظم مقصود بالتحدى ؟

قيل له: لا فصل بينكم وبين من قال: لم يثبت أن الفصاحة مقصودة بالتحدى، وإذا لم يثبت ذلك فكان لا بد من وجه يكون هو المقصود بالتحدى، وعليه ثبت أن ذلك الوجه هو النظم فقط، وذلك أن القرآن له هذا النظم المخصوص والفصاحة المخصوصة، وقد وقع التحدى به، وثبت عجز البشر عن الإتيان بمثله، فلم يكن ادعاء تعلق العجز بأحد الأمرين أولى من ادعاء تعلقه بالآخر، فيجب أن يقال: أنه متعلق بهما أو يقال: انه لا يتعلق بواحد منهما، ولا يصح القول بأنه لا يتعلق بواحد منهما، لأنه لا بد من وجه به يتعلق الإعجاز، ويكون هو المقصود بالتحدى، فإذا ثبت ذلك فيجب تعلق الإعجاز بالأمرين،وأن يكونا جميعا مقصودين بالتحدى على ما ذهبنا إليه، على أنا قد عرفنا من حال كل من ادعى أنه يعارض القرآن أو يأتى بما يقاربه نحو مسيلمة وطليحة وابن المقفع، على اختلاف أحوالهم، طلب الأسلوب والفصاحة معا، ولم يكن فيهم من كان يأتى بشعر أو خطبة فيدعى أنه قد أتى بما يقاربه، فدل ذلك على أنهم أجمعون عرفوا أن المقصود بالتحدى هو النظم والفصاحة معا، فدل ذلك على صحة ما قلناه.

على أن قوله عز وجل: ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ وقوله عز وجل ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ ﴾ يدل على أن النظم مقصود بالتحدى، لأن اسم السورة لا ينطلق على الشعر، ولا الخطبة ولا الرسالة ولا اسجاع الكهنة، ولا المحاضرة، وإنما

ينطلق على ماله هذا النظم المخصوص، فإذا كان كذلك كان قوله: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ جاريا مجرى أن يقول: فأتوا بجملة لها هذا النظم المخصوص، فبان صحة ما ادعيناه من تعلق الإعجاز بالنظم مع الفصاحة.

فإن قيل: إذا ثبت أن هذا النظم المخصوص لم تكن العرب تعرفه، ولا جرت عاداتها باستعماله، فمن أين ادعيتم: أن اسم السورة يتناوله دون سائر أجناس الكلام ؟

قيل له: هذا الاسم جارى مجرى الأسماء الشرعية، لأنه لم تكن العرب تستعمله فى جمل شتى من أجناس الكلام، وإنما استعمل ذلك بعد نزول القرآن، إلا أنه لما قال عز وجل ﴿ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ وقال: ﴿ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ صح أنه يجوز استعماله فيما يجانس نظمه من الكلام. وهذه دلالة قوية يجوز أن تعتمد ابتداء فى بيان أن النظم مقصود بالتحدى، وإذا ثبت ذلك ثبت تعلق الإعجاز بالنظم على ما قلناه.

فإن قيل: ما تنكرون على من قال لكم: أن الإعجاز تعلق بالنظم فقط ؟

قيل: قد تقم بيان فساد قول من يقول ذلك. لأنا بينا أن مثل هذا النظم لا يجوز أن يتعذر على من لا يتعذر عليه سائر أجناس النظم، وذلك يسقط هذا السؤال، ولا يصح أيضا سؤال من يسأل فيقول: إذا لم يكن النظم معجزا، فيجب أن تكون الفصاحة هى المعجزة، ولا سؤال من يسأل فيقول: أن الفصاحة قد انتقضت بها العادة، فلا وجه لضم الأسلوب إليها، لأنا قد بينا أن الإعجاز بهما تعلق، وأنه لا سبيل لنا إلى العلم بأن فصاحة القرآن قد بلغت إلى حد انتقضت به العادة، وبينا أن الإعجاز بهما تعلق، أعنى النظم والفصاحة، وأن ذلك جارى مجرى العلة ذات وصفين، فى أن كل واحد من الوصفين، لا يتعلق الحكم به على الانفراد.

فإن قيل: فإذا قلتم: أن النظم على الانفراد غير متعذر على البشر، وكذلك الفصاحة على الانفراد غير متعذرة على البشر، فكيف يصح أن تقولوا: يتعذر عليهم الجمع بينهما، وهذا يؤدى إلى القول بأن الإتيان بمثل القرآن لا يتعذر على البشر ؟

قيل له: معاذ الله من ذلك. فإن القول الذى قلناه، لا يؤدى إلى ما ذكرتم على ما نبينه ونوضحه، وذلك أن الذى من أجله أن لا يتعذر النظم هو العلم الذى يحصل به وهو العلم بأن كل كلمة إذا وقعت عقيب أى كلمة أعقب هذا: النظم أو غيره من نظم أجناس الكلام موزونة أو منثورة، ويتعذر ما يتعذر من ذلك لفقد هذا العلم، وكذلك الذى من أجله أن لا تتعذر الفصاحة هو أن يعلم أن كل كلمة إذا وقعت عقيب أى كلمة، وما جرى مجراها من تبديل حرف عن حرف أو كلمة عن كلمة خرج الكلام فصيحا.

وجملة هذا العلم هى علوم ضرورية وإن كانت لا تحصل إلا بالممارسة كالعلم بالمهن والصناعات، ثم العلم بما إذا أتى به كان فصاحة فى الطبقة الدنيا أو الوسطى أو العليا فى نظم مخصوص علم ثالث.وهو أيضا إذا حصل حصل ضرورة، وإذا كان هذا هكذا لم يمتنع أن يكون الله عز وجل لم يجمع لأحد من البشر بين هذه العلوم الثلاثة. أحدهما: هو العلم بما به يكون هذا النظم واقعا فى أعلى طبقات الفصاحة. وإذا لم يمتنع ذلك لم يمتنع أن يتعذر على جميع البشر الإتيان بمثل القرآن لفقد أحد العلوم الثلاثة، وإن حصل العلمان.

يكشف هذه الجملة: أنا نعلم أن الكاتب الذى يكتب الرسائل فى أعلى طبقات الفصاحة إذا عدل عنها إلى الشعر ربما لم يمكنه أن يأتى به فى أعلى طبقات الفصاحة، وكذلك الشاعر المفلق ربما أمكنه فى الشعر أن يرتقى إلى أعلى طبقات الفصاحة، فإذا أخذ يكتب الرسائل هبط عن مرتقاه.

وعلم أن هذا الخطيب المصقع، أو المحاور الفصيح قد يعدل أو الواحد منهما عما هو نهاية فيه إلى غيره، فلا يمكنه بلوغ النهاية فيه، فوضح بما ذكرنا: أن العلم بإيقاع الفصاحة فى نظم مخصوص علم ثالث غير العلم بالنظم، والعلم بالفصاحة، فلم يمتنع أن يتعذر ما ذكرنا لفقد ذلك العلم، وهذه العلوم هى التى يعبر عنها بالطبع فيقال: فلان مطبوع فى كذا، غير مطبوع فى كذا، والمرجع به إلى العلوم التى ذكرناها.

يكشف ذلك: أنا نعرف من حال الخليل والأصمعي[1] ومن جرى مجراهما أنهم كانوا يعرفون الفصاحة، ولم تتعذر عليهم، وكانوا يعرفون وزن الشعر ولم يكن يتعذر، ومع هذا نعلم أن واحدا منهم لم يكن يمكنه أن يأتى بمثل أشعار امرئ القيس، والنابغة، والأعشى ومن دونهم من فحول الشعراء، وليس السبب فيه إلا ما ذكرناه،ولهذا تجد من يتفاصح فى كثير من أجناس النظم، إذا طلب نظم القرآن سقط دون غرضه وهبط دون مرتقاه، وليس ذلك إلا أنه يفقد العلم الذى معه يصح إيقاع الفصاحة فى هذا النظم المخصوص.

فإن قيل: ما تنكرون على من قال لكم: إذا كان هذا النظم لم يكن عرف قبل النبى – صلى الله عليه – فما أنكرتم أن يكون معجزا على الانفراد لأنه بالإتيان به يكون ناقضا للعادة ؟

قيل له: ليس معنى قولنا فى المعجز: أنه ناقض للعادة. أنه أتى به من غير أن كان مثله قبل ذلك الوقت. لأن السبق إلى الشئ لا يوجب كونه معجزا، ألا ترى أن كثيرا من الصناعات قد ابتدأت، ووقع السبق إليها من أقوام، ولا يصح ادعاء المعجز فى شئ. وإنما نريد بقولنا: انه ناقض للعادة، أن مثله يتعذر على جميع البشر، والعادة المنقوضة استمرار الحال فى تعذره على ما قلنا

فأما قول من يقول: أن الإعجاز فى الصرف فى جملة القرآن، فهو عندى بعيد

---

١ – الأصمعى: هو أبو سعيد بن عبد الملك بن قريب بن على بن أصمع الباهلى، مولده ووفاته بالبصرة (١٢٢ هـ – ٢١٦ هـ) ونسبته إلى جده أصمع، وكان الأصمعى كثير التطواف فى البوادى يقتبس العلوم والأخبار والغرائب والنوادر ليتحف بها الخلفاء فيكافأ عليها بالعطايا الوافرة، وصار إماماً فى اللغة والشعر والبلدان والأخبار، وعرف بكثرة الحفظ ورواية الشعر والصدق والتدين والإفتاء بما أجمع عليه العلماء، والتوقف فى المسائل الخلافية، وتجويز أفصح اللغات فقط، وعدم تفسير شيء من القرآن والحديث، فإذا سئل عن شيء منهما يقول: معناه فى اللغة كذا، ولا أعلم المراد منه فى الكتاب والسنة أى شيء هو ؟ ولذلك نالت مروياته من التوثيق أكثر مما نالت مرويات غيره، استقدمه هارون الرشيد وعهد إليه بتأديب ولده، وكان يسميه شيطان الشعر، ألف كثيراً من الرسائل والكتب اللغوية منها (الأصمعيات) وهى ٩٢ قصيدة مختارة لواحد وسبعين شاعراً فى موضوعات متنوعة (الأعلام ٤: ١٦٢، القاموس الإسلامى ١: ١٢٦).

جدا. لأن الصرف عن الشئ يمكن أن يدعى إذا علم أنه مقدور عليه، غير متعذر وجود مثله، ممن ادعى أنه مصروف عنه، وليس هاهنا ما يبين أن الإتيان بمثل القرآن كان ممكنا للعرب غير متعذر عليهم، بل قد ذهبنا على خلاف ذلك، فبان سقوط من ادعاه.

وأيضا القول بذلك يؤدى إلى أن يعرف الفرق بين ما يتعذر على الناس، وبين ما لا يتعذر، لأنه لو جاز لهم أن يقولوا، أن العرب صرفوا عن الإتيان بمثل القرآن، وإن لم يثبت تأتيه منهم لجاز أن يقال: إن الناس صرفوا عن فعل الأجسام والألوان والحياة والقدرة، وإن لم يثبت أن شيئا منه متأت منهم، وهذا واضح السقوط. وكذلك القول فى الصرف عن القرآن.

وأما سؤال من يسأل من أهل هذه المقالة. فيقول: إذا كان الانسان قادرا على أن يقول " الحمد لله " ويتأتى منه أن يقول: " رب العالمين " وغير متعذر عليه أن يأتى على جميع القرآن، فما الذى يمنعه عن الإتيان بمثله ؟ ومتى يحصل التعذر ؟ أعند أول كلمة ؟ أو عند الثانية ؟ أو الثالثة ؟ أو ما بعدها ؟ وذلك مما لا يصح، فثبت أن الإعجاز هو الصرف، فإنه من ركيك السؤال، لأنا قد بينا فيما تقدم: أن إنشاء الخطبة أو الشعر أو الرسالة أو نظم القرآن فى أعلى طبقات الفصاحة يحتاج إلى علم زائد على العلم بالنظم والفصاحة، وذلك العلم الزائد هو الذى يعبر عنه بالطبع، فلا وجه لهذا السؤال.

على أنا نوضح سقوطه، بأن نقول لهذا السائل، أليس قد علمت أن كل أحد ممن يعرف لغة العرب يمكنه أن يقول: " فأنك " ويمكنه أن يقول:" كالليل " ويمكنه أن يقول: " الذى " ولا يتعذر عليه أن يقول:" هو مدركى " ويتأتى منه أن يقول:" وان خلت " ويتأتى منه أن يقول: " أن المنتأى " ولا يتعذر عليه أن يقول: " عنك واسع ".

أفترى أن كل من يعرف لغة العرب يمكنه أن يأتى بمثل قول النابغة:

فأنـك كالليـل الـذى هو مدركى وان خلت أن المنتأى عنك واسع

فيقال له: متى يحصل المتعذر عليه عند أول لفظة ؟ أو عند الثانية ؟ أو عند الثالثة ؟ أو بعدها ؟ ثم يلزم ذلك فى جميع أشعار العرب وخطبهم، وهذا فساد أظهر من أن يحتاج إلى الإطناب، ولا بد لهذا السائل من الرجوع إلى ما تقدم من جوابنا.

ولهذا قالوا: أن الشاعر المفلق: هو الذى يرمى قريحته بالبيت بعد البيت، والمتوسط: من يأتى بالمصراع بعد المصراع، والمتكلف: من يأتى بالكلمة بعد الكلمة حتى يؤلفها شعرا. وليس الفاصل بين الشاعر الأول والثانى أو الثالث إلا العلوم التى أشرنا إليها المعبر عنها بالطبع، وهكذا أحوال الخطباء والمترسلين عنهم، منهم من يستجيب طبعه إلى أن يأتى بالفصول بعد الفصول، والاسجاع بعد الاسجاع، يكاد يتسلسل عليه ماء العذوبة، ويبعد عن التكلف والتعسف، ومنهم من يؤلف الكلمة إلى الكلمة والسجع إلى السجع متعمدا أن تنادى على نفسها بأنها متكلمة متعسفة، وليس الفاصل بينهم إلا الطبع،وعلى أن الإعجاز لو كان من جهة الصرف، لكان الصرف هو المعجز، ولم يكن القرآن معجزا، وهذا خلاف ما يعلم من دين المسلمين، لأن المسلمين مجمعون على أن الله عز وجل جعل القرآن معجزا لنبيه – صلى الله عليه وآله.

ويدل على ما قلناه أيضا من كون القرآن معجزا فى نفسه: ما حكى الله عز وجل حيث يقول: ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾[1]

وما ذكر من اجتماع أبى جهل، وعتبة بن ربيعة، فى ملأ من قريش يتعجبون من القرآن حين قالوا: نحتاج إلى رجل يعرف الشعر، ويعرف كلام الكهنة، فقال عتبة بن ربيعة: أنا لذلك، ومضى إلى رسول الله – صلى الله عليه – فتلا عليه قول الله عز وجل: ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[2] حتى مر فى السورة، وانتهى إلى قوله: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾[3] فقام

---

١ - المدثر: ١٢-٢٤

٢ - فصلت: ٢

٣ - فصلت: ١٣

مرعوبا مدهوشا، وقال: سمعت الشعر، وسمعت كلام الكهنة، وما هذا شيئا من ذلك، وإلى سائر ما ذكر من غيرهم فى أمر القرآن، فلو كان القرآن أمرا لا يتعذر مثله على العرب، وإنما صرفوا، كان لا يتعجب منه المتعجب، ولا يحار فيه الحائر، وإنما كان يكون التعجب والحيرة فى صرفهم، ألا ترى أن نبيا لو قال: معجزتى: أن أكلمكم اليوم إلى المساء بما تكرهون، فلا يمكن أحدا منكم أن يجيبنى لأنكم تصرفون عنه، كان الإعجاز فى صرفهم هو الذى يكون أعجوبة.

وقد يحار من يحار دون مخاطبته المعهودة لهم، كذلك يجب أن يكون حال القرآن والصرف على أوضاعهم لو كانت صحيحة، وفى حرى الأحوال على خلاف ذلك دلالة على فساد قولهم.

فأما السور القصار، فليس يبعد عندى أن يقال: أنهم صرفوا عن الإتيان بمثلها، إذ ليس يظهر لنا فى نظمها وفصاحتها ما يمكن أن نقول: إن الإعجاز يعلق فيه، وهذا فيه نظر والله أسأل حسن التوفيق.

ونحن نبين الآن فصاحة القرآن وشرف موقعه، ومصادفة نظمه على طبقات الفصاحة، إذ به يتم ما اعتمدناه وبنينا كلامنا عليه،والله الموفق والمعين.

هذا ولست أطمع فى أن أذكر جميع مزاياه وعجائبه، وما اختص به من دقائق المعانى، وعلو رتبته فى الفصاحة، ومباينته عامة كلام العرب مما يوجب شرفه ويدل على بلوغه ذروة البلاغة، وغارب الفصاحة التى أذكر يسيرا من كثير، وغيضا من فيض، على ما يحضرنى فى الحال، منبها به على ما سواه مستعينا بالله عز وجل، ومستمدا من فضله، وراغبا إليه عز وجل أن يكتبه فى صحفنا، إذا الصحف نشرت، وإذا السماء كشطت، ويبيض وجوهنا، يوم تبيض وجوه، وتسود وجوه، حسبى الله وكفى.

الفصل السادس
الكلام فى بيان أن القرآن فى أعلى طبقات الفصاحة

إعلم: أن هذا لا يتم إلا بأن نبين جملا من أقسام الفصاحة، ثم نبين أن نظم القرآن مشتمل عليها، ونبين مزايا القرآن فيها، ونلحق بذلك ما يكشف عن غرضنا فى هذا الباب كشف يوضحه، ولا يبقى معه لمرتاد الحق شبهة، بعون الله عز وجل، وحسن توفيقه.

إعلم، أن أصل الفصاحة، هو الإبانة عن المعنى المقصود بحسن البيان، وهذا معنى ما حكى الله عز وجل عن موسى – صلى الله عليه – ﴿ **وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا** ﴾[1] أى أحسن بيانا.

فمن أقسام الفصاحة أن يكون الكلام مركبا من اللغات الفاشية فى العرب التى لم يسترذلها أحد منهم نحو " عنعنة تميم " و " كشكشة ربيعة " وذلك أن قوما من تميم تجعل الهمزة المفتوحة عينا، وأنشد الخليل فيه:

وجيها موشك عن يصدع الكبدا

وقوم من ربيعة يقولون للمرأة: عليش وأليش وبش. يريدون: عليك واليك وبك. فيجعلون الكاف شيئا وينشدون:

فعيناش عيناها وجيدش جيدها

سوى أن عظم السابق منش دقيق

---

١ - القصص: ٣٤

قال الخليل: من ترك عنعنة تميم، وكشكشة ربيعة، فهم الفصحاء، ومن ذلك ما حكى عن قوم من العرب أنهم يكسرون النون، التى تدخل على الفعل المستقبل فيقول: ونذهب، ونخرج، ومن ذلك جر الاسم لمجاورة المجرور، وإن لم يكن ذلك حقه كقولهم (جحر ضب خرب) ولذلك ذهب نحاة البصرة إلى أنه لا يجوز أن يتأول قول الله عز وجل: ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾[1] إذا قرئ بجر اللام فيقال: إن ذلك لمجاورة المجرور.

فأصل الفصاحة أن يسلم الكلام من ذلك، وأشباهه، وقد سلم كل القرآن من أوله إلى آخره. فهذا باب من الفصاحة، ولهذا اقرأ (أبو عمر) "أن هذين لساحران" ولم يتأوله على لغة من يجلع المنصوب للألف، فيقول: (خدر جلاها واخلع نعلاها) ومثل ذلك:

إن أباها وأبا أباها قد بلغا فى المجد غايتاها

وفيمن قرأ بالألف من حمله على أن (أن) بمعنى (نعم) وكره تأويله على الوجه الأول لما قلناه.

ومن أقسام الفصاحة: أن يكون الكلام مؤلفا من لغات ترتفع عن المبتذل السوقى وتنحط عن المستقل الحوشى. ولهذا نجد أشعار الفصحاء المجيدين نحو امرئ القيس، والنابغة وزهير والأعشى،جارية على هذه الطريقة لا يكاد يوجد فيها الحوشى المستفل، إلا أن تتفق ندرا، وإنما يكثر ذلك فى كلام الأجلاف من العرب والمتكلفين نحو: الشماخ، ورؤبة، ومن نحا نحوهما، فأما السوقى المبتذل فقل ما يتفق فى كلام أهل البادية، وإنما يكثر ذلك فى كلام المولدين، وأشعارهم والقرآن من أوله إلى آخره مؤلف من النمط المختار فى هذا الباب، فهذان القسمان من الفصاحة قد استمرا فى جميع القرآن بحمد الله ومنه.

ومن أقسام الفصاحة: جزالة اللفظ، وهى موجودة فى جل القرآن وجمهوره، وإن

---

١ - المائدة: ٦

لم يوجد فى جميعه – كما قلناه فى القسمين الأولين، لأنه ليس فى قوة الطويل الذى يصرف على معانى مختلفة، ومقاصد متباينة، وأغراض متمايزة، كالأوامر والنواهى والزواجر والمواعظ والوعد والوعيد والقصص والمثل أن يكون جميعه مؤلفا من ألفاظ جزلة، لأن جزالته تكون لتأليفه من حروف مخصوصة،والكلام مبنى من الأسماء والأفعال والحروف، وفى الكثير من الأسماء والأفعال والحروف ما لم يؤلف من الحروف التى تقتضى جزالة، والفصيح إذا صار إلى تلك الأسماء والأفعال والحروف، فلا بد من إيرادها على ما هى عليه، إذا كان متكلما بكلام العرب.

ولهذا لا يمكن فى شئ من أشعار فحول الشعراء، وكلام البلغاء أن يكون من أوله إلى آخره مؤلفا من ألفاظ جزلة.

فأما العذوبة فهى أمكن لأنها تكون بالتلاؤم وأن لا تكون الكلمة مؤلفة من حروف متنافرة وذلك أمكن من الجزالة. وقد يكون ذلك بتلاؤم الحركات والسكنات كما يكون بتلاؤم الحروف، وأما مواضعها من القرآن فأكثر من أن يأتى عليها الإحصاء والعد ونحن نذكر منها مواضع ننبه بها على ما سواها، من ذلك قوله عز وجل: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾[1] وقوله: ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ﴾[2] وفى هذه الآية من وجوه الفصاحة سوى الجزالة ما نبينه فى موضعه.

وكقوله: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ﴾[3] وكقوله عز وجل: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾[4]

وقوله: ﴿ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ﴾[5].

---

١ – البقرة: ١٧

٢ – البقرة: ٢٠

٣ – البقرة: ١٩٧

٤ – البقرة: ١٧٩

٥ – البقرة: ١٩٤

وقوله عز وجل: ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1]

وقوله: ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾[2]

وقوله: ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾[3] وكقوله: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[4] وقوله عز وجل: ﴿ فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾[5] وكقوله عز وجل ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[6] وهذه السورة أكثر ألفاظها من ألفاظ الجزالة مع العذوبة، وفيها: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾[7] وفيها: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ۝ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾[8].

ومن ذلك عامة سورة القصص وهو من الفصاحة العجيبة، لأن أول هذه السورة فى اقتصاص أحوال موسى – صلى الله عليه – من مولده إلى مبعثه إلى قصده فرعون، مبلغا ما أرسل به إليك، وذلك مما يصعب جدا فى اقتصاص أحوال معينة لأنه لا بد من ضعف يعرض فيما جرى مجراه، فإذا أردت أن تتحقق ذلك فتأمل كلام الفصحاء إذا قصدوا هذا القصد، ومن ذلك عامة "حم" السجدة. تأملها، تجدها على ما قلناه. ومن ذلك: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ وما بعدها من الآيات.

---

١ – البقرة: ١٩٣
٢ – الأعراف: ١٣٧
٣ – الأعراف: ١٣٨
٤ – الأعراف: ١٩٩
٥ – الأعراف: ١٧٥
٦ – هود: ١
٧ – هود: ٤٤
٨ – هود: ١٠٠-١٠١

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1] ومن ذلك فى السور القصار قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾[2] وقوله عز وجل: ﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾[3].

وتتبع هذا مما يتعذر، فإن أكثر القرآن على هذا، ونحن إذا بينا سائر أقسام الفصاحة نتيه فى أثنائها أيضا على ما فيها من الجزالة، وأن هذا باب عام فيه، وإن كان بعض الألفاظ يزيد على بعض،وفى هذا المعنى - أعنى فى الجزالة والعذوبة ومن أقسام الفصاحة: الاستعارات والتشبيهات. وإحداهما قريبة من الأخرى، وإن كان بينهما فصل، وذلك: أن التشبيه هو أن يذكر الشئ باسمه،ويشبهه بغيره، كقولك: " زيد مثل الأسد شجاعة،وكالريح جودا، وكالبدر حسنا".

والاستعارة أن تنقل إليه اسم الشئ المشبه به،وذلك كقولك (حمار) إذا وصفته بالبلادة، أو (كلب) إذا وصفته بالخساسة، والاستعارات والتشبيهات فى القرآن كثيرة حسنة واقعة موقعها لحسنها، وشرف موضعها،ونحن نذكر منها جملا ننبه بها على ما سواها، لأن استيفاءها مما يطول ويتعذر، فمن ذلك قوله عز وجل: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾[4] فشبه المنافقين الذى أظهروا الإيمان،وانتفعوا به بين المسلمين بمن استوقد نارا، حتى أضاءت ما حوله، وشبه أحوالهم عند الموت، وبعد الموت فى أنهم لا ينتفعون بما أظهروه من الإيمان، ثم " ذهب الله بنورهم " فشبه المنافقين

---

١ - النمل: ٦١

٢ - الفيل: ١-٥

٣ - العاديات: ١-٥

٤ - البقرة: ١٧

الذى أظهروا الإيمان،وانتفعوا به بين المسلمين بمن استوقد نارا، حتى أضاءت ما حوله، وشبه أحوالهم عند الموت، وبعد الموت فى أنهم لا ينتفعون بما أظهروه من الإيمان، ثم "ذهب الله بنورهم" حتى بقوا فى "ظلمات لا يبصرون" ثم استعار لهم عز وجل اسم الأصم والأبكم، وضم الأعمى، فقال " صم بكم عمى فهم لا يرجعون " فهم فى إعراضهم عن استماع الحق بمنزلة الصم الذين لا يسمعون، وفى تركهم النطق بالحق على ما أمرهم الله عز وجل ودعاهم إليه، بمنزلة الخرس الذين لا ينطقون

ثم قال عز وجل: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾[1] إلى آخر الآية، فشبههم فى حيرتهم وتبلدهم واضطراب أمورهم، وحرج صدورهم بمن يكون فى ظلمات ورعد وبرق، ثم ذكر هذا المعنى بقوله عز وجل: ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾[2] ثم زاد فى وصف أحوالهم فقال: ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[3] ثم رد عز وجل هذا المعنى، أعنى تأثير البرق فى الأبصار فى غير هذه الألفاظ، فقال: ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[4] وهذا من الفصاحة العجيبة والبلاغة التامة أن يرد معنى واحدا بألفاظ مختلفة تجمعها الفصاحة، ثم عاد عز وجل إلى ذكر من بدأ بذكرهم، فقال: ﴿ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ وهذا قسم من الفصاحة، وهو أن يجرى ذكر شئ، ثم يتجاوز إلى ذكر غيره، ثم يعطفه عليه، ويعاد ذكره، أعنى المذكور أولا مثل قول جرير:

متى كان الخيام بذى طلوح ؟ سقيت الغيث أيتها الخيام

---

١ - البقرة: ١٩
٢ - الأنعام: ١٢٥
٣ - البقرة: ٢٠
٤ - النور: ٤٣

فجمعت هذه الآية أنواع الفصاحة منها الجزالة فى اللفظ مع التشبيهات والاستعارة الواقعة، والعطف آخر الكلام على أوله.....

ومن الأمثال الحسنة والتشبيهات الواقعة ما ذكره عز وجل من قوله عز وجل: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ﴾[1] إلى قوله: ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾[2] فشبه عز وجل من أنفقوا ابتغاء لوجه الله،وطلبا لثوابه الرادع، بما يحصل لهم من الربح بحبة،وبمن له جنة بربوة، آتت أكلها ضعفين، وشبه من أحبط ثواب انفاقه بطلب الرياء والسمعة بصفوان عليه تراب إذا أصابه الوابل، وبمن له جنة، وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت، وكلها تشبيهات، وأمثال واقعة، بألفاظ جزلة.

ومن الاستعارة الحسنة قوله عز وجل: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾[3] وقوله: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[4] فجمع بين الآية، الاستعارة الحسنة، والجزالة البالغة، والعذوبة اللطيفة.

وأخذ هذا المعنى الكميت فقال:

خفضت لهم منى جناحى مودة إلى كنف عطفاه أهل ومرحب

فأخذ اللفظ والمعنى، ولكن لم يرزق تلك العذوبة الصافية، وذلك الماء المتسلسل على أن هذه اللفظة فى غرة هذا البيت مع ما بها، والباقى كما يرى، ومن الاستعارة الحسنة العذبة مع الجزالة قوله عز وجل ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ فاستعار للبياض اسم الاشتعال مصبوبا فى قالبه، مقصورا عليه وهذا من الفصاحة البالغة.

---

١ - البقرة: ٢٦١

٢ - البقرة: ٢٦٦

٣ - الإسراء: ٢٤

٤ - الشعراء: ٢١٥

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾[1] إلى آخر الآية، فسمى نفسه باسم النور لما كان عز وجل، هو خالق النور ومنشئه، مع ما فيه من النفع العظيم لأهل السموات والأرض، وهذا من الاستعارة الحسنة، ومن تسمية الفاعل بفعله، ومنه قول الشاعر:

تراعى إذا غفلت، حتى إذا ادكرت فـإنـما هـي إقبـال وإدبـار

وعلى هذا تأول من قرأ ﴿ إِنَّهُۥ عَمِلَ غَيۡرَ صَٰلِحٍ ﴾[2] برفع اللام وفتح الميم، ثم شبه نوره بالمصباح، فقال: ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٍ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ﴾[3] ثم شبه الزجاجة بالكوكب، فقال: ﴿ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ وهو أضوأ الكواكب، ثم عاد إلى ذكر المصباح، وهذا يسمى الالتفات، فقال: ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيۡتُونَةٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ فعاد إلى ذكر النور، وهذا أيضا مما يسمى الالتفات، وهو أن يجرى ذكر شيء، ثم يتجاوز إلى غيره، ثم يذكر ثانيا، كما قال جرير:

متى كان الخيام بذى طلوح سقيت الغيـث أيتهـا الخيام

فجمعت هذه الآيات وجوها من الفصاحة منها جزالة اللفظ، ومنها الاستعارة، ومنها تشبيه بعد تشبيه ومنها الالتفات بعد الالتفات.

ومن التشبيه الواقع قوله عز وجل بعد هذه الآية: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾[4].

لما كانت أعمالهم محبطة لا نفع فيها فى الآخرة، شبهها بالسراب الذى لا نفع فيه، ولأنه مما يظن الناظر أنه ماء، وكذلك الكافر لما يظن أن له نفعا فى عمله، شبهه أيضا

---

١ - النور: ٣٥
٢ - هود: ٤٦
٣ - النور: ٣٥
٤ - النور: ٣٩

به، فهذان وجهان من التشبيه وفيه تشبيه ثالث، وهو انكشاف حال كل واحد منهما عن أنه لا نفع فيه لراجيه، وفيه تشبيه آخر، وهو تشبيه الكافر بالظمآن، وتشبيه ظنه بظنه، وتشبيه خيبته بخيبته عند شدة حاجته إليه، وقوة تعويله عليه، فقد جمعت الآية هذه الوجوه من التشبيهات مع جزالة اللفظ، وحسن المعنى، وقد عد من محاسن امرئ القيس: أنه جمع بين تشبيهين فى بيت واحد حيث يقول:

كـأن قلـوب الطـير رطـبا ويابسـا لدى وكرها: العناب،والحشف البالي

ومن التشبيه الحسن فى هذا المعنى: قوله: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾[1] ومن الاستعارة فى هذا المعنى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾[2] فعبر عن فعله عز وجل بالقدوم، وعن أعمالهم بالهباء المنثور.

ومن التشبيه الحسن قوله عز وجل: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾[3] ومن التشبيه قوله تعالى: ﴿ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ﴾[4] ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾[5] ومنه قوله عز وجل: ﴿ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾[6].

ومن الاستعارة قوله عز وجل: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾[7] فسماهن حرثا، لأن النسل يخرج منهن، كما يخرج الزرع من الأرض.

---

١ - إبراهيم: ١٨
٢ - الفرقان: ٢٣
٣ - الإنسان: ١٩
٤ - يونس: ٢٧
٥ - الصف: ٤
٦ - الحج: ٣١
٧ - البقرة: ٢٢٣

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ﴾[1] أى تترخصوا، فسمى الترخص إغماضا؛ لأن الانسان يصرف بصره، عما لا يحب أن يراه، ويقف على حقيقته.

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ﴾[2] أراد كلما أهاجوا شرا. وأمثال هذا فى القرآن أكثر من أن تعد وتحصى، وهى عادة العرب فى مخاطباتها، ومحاوراتها، وأشعارها، وخطبها، ولن نطول الكتاب بذكر ما ورد عنهم فى هذا الباب لشهرته واستفاضته.

ومن أقسام الفصاحة:

الإيجاز، وذلك ينقسم إلى قسمين، وقد يكون بتقليل الحروف مع استيفاء المعنى، وقد يكون بالحذف، والحذف على أنحاء شتى، ونحن نبينه على جميع ذلك بذكر بعضه إذ استيفاء جميعه مما يطول. فمن الإيجاز بتقليل الحروف قوله عز وجل: ﴿ وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ﴾ ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴾[3] قلل الحروف فى هذا الموضع، لما أراد الإيجاز، وبسط حيث أراد البسط فى هذا المعنى فقال: ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾[4] وقال أيضا: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾[5]

فانظر - رحمك الله - إلى شرف هذا الكلام، فإنه أوجز هذا الإيجاز، وذكر للإنسان حالتين إحداهما، أضعف الحالات، والأخرى: أقواها. ثم نبه على ما بينهما. فجمع فى الآية وجهين من الإيجاز، أحدهما: تقليل الحروف. والثانى: حذف الوسائط بين الحالتين، مع جزالة اللفظ، وحسن المعنى، ثم أراد عز وجل بسط هذا

---

١ - البقرة: ٢٦٧

٢ - المائدة: ٦٤

٣ - النازعات: ٣١-٣٢

٤ - عبس: ٢٥-٣١

٥ - النحل: ٤

المعنى فقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾[1]

وهذا باب كبير من الفصاحة ؛ لأن البليغ هو الذى يبسط الكلام إذا شاء بسطه من غير خطل، ويرخى عنان الخطاب، ويمتطى ظهر الإطناب، ويوجز إذا شاء الإيجاز من غير تحيف للمعنى.

وحكى عن بعض الفصحاء أنه وصف كاتبا بالبلاغة، فقال: "إن أخذ طوبارا ملأه، وإن أخذ شبرا كفاه " يريد أنه كان يبسط إذا شاء، ويوجز إذا شاء.

ومن هذا الباب قوله عز وجل: ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴾[2] فأراد عز وجل هذا الإيجاز، ثم لما أراد أن يزيد هذه الصفة يسيرا مع البسط، قال: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾[3] ثم لما أراد أن يزيد على ذلك فى البسط قال عز من قائل: ﴿ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾[4].

ثم لما أراد عز وجل البسط التام بسط فى السورة التى يذكر فيها هودا – صلى الله عليه – والسورة التى يذكر فيها الأعراف، والسورة التى يذكر فيها الشعراء، وعلى هذا أوجز ذكر ثمود، فقال عز وجل: ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴾[5] ثم بسط ذلك فى سائر المواضع، ومن ذلك قوله عز وجل:﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[6].

---

١ – المؤمنون: ١٢-١٤

٢ – الذاريات: ٤١-٤٢

٣ – القمر: ١٨-٢٠

٤ – الحاقة: ٦-٨

٥ – الحاقة: ٥

٦ – النحل: ٥٣

فانظر رحمك الله إلى هذا الإيجاز مع استيفاء المعنى، تعلم أنه أبلغ ما يمكن فى بابه، ثم زاد عز وجل بسطه يسيرا، فقال: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾[1] وقال أيضا: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾[2] ثم بسط عز وجل ذكر الآية: ونعمه فى السورة التى يذكر فيها النحل من قوله: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۚ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾[3]

إلى قوله: ﴿ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾[4] ثم من قوله: ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾[5] إلى قوله: ﴿ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾[6] ومن قوله عز وجل: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾[7] إلى قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾[8] وعامة هذه السورة فى ذكر نعم الله عز وجل.

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾[9] وقوله: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[10] فدل عز وجل بهاتين الآيتين على حسن العشرة بأوجز اللفظ ثم ضبط ذلك فى السورة التى يذكر فيها الحجرات أتم بسط. ومن الاختصار الحسن قوله عز وجل: ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾[11] وقد طلب هذا المعنى بعض الشعراء فقال:

---

١ - الجاثية: ١٣
٢ - لقمان: ٢٠
٣ - النحل: ٥
٤ - النحل: ١٦
٥ - النحل: ٦٥
٦ - النحل: ٧٢
٧ - النحل: ٧٨
٨ - النحل: ٨١
٩ - فصلت: ٣٤
١٠ - الأعراف: ١٩٩
١١ - المنافقون: ٤

ولو أنها عصفورة لحسبتها مسومة تدعو عبيدا وأرنما

وقال آخر:

مازلت تحسب كل شئ بعدهم خيلا تكر عليكم ورجالا

وقال آخر:

أرانى الخوف عدتهم ألوفا وكان القوم خمسا فى ثلاث

فلم يتفق لهم هذا الاختصار ولا هذه العذوبة وسمعت بعض أهل الأدب يحكى أن شاعرين كانا يتهاجيان فقال أحدهما فى صاحبه:

يحسب كل صيحة عليهم.....

فكاع الآخر عنه، وضعفت نفسه إعجابا بهذا البيت، إحساسا من نفسه بالعجز عن مثله إلى أن عرف أنه أخذه من القرآن، فتجرأ عليه، وعادت له قوته، وأخذ فى مهاجاته.

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ وقد أخذ هذا بعضهم فقال: " وبعض القتل أحيا للجميع " وقال غيره " القتل أفل للقتل " فلم يقع من ذلك موقع قوله: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾[1] وتتبع مثل هذا مما يطول.

وأما القسم الثانى من الاختصار، فهو الذى يكون بالحذف، وذلك يتنوع أنواعا كثيرة، فمن ذلك أن تحذف المضاف، ويقام المضاف إليه مقامه، كقوله عز وجل: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾[2] أراد أصحاب العير، وأهل القرية، وكقوله: ﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ﴾[3] أى ضعف عذاب الحياة، وضعف عذاب الممات، وكقوله عز وجل: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[4] ذكر عن أكثر المفسرين أن المراد إلى

---

١ - البقرة: ١٧٩

٢ - يوسف: ٨٢

٣ - الإسراء: ٧٥

٤ - القيامة: ٢٢-٢٣

ثواب ربها ناظرة، فحذف الثواب، وهذا مذهب للعرب مشهور، وهو فى القرآن كثير، وقد يكون بحذف اسم أو فعل أو جواب كقوله عز وجل: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾[1] وتقديره: لكان هذا القرآن فحذفه.

وكقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾[2] تقديره: لكان ذلك خيرا لهم. فحذفه. ومثله قوله عز وجل: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾[3] ومثل ذلك: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾[4] وتقديره، أيساويه من لا يكون كذلك ؟ فحذفه.

ومثله فى الشعر كثير، فمن ذلك قول الشاعر:

فأقسم لو شئ أتانا رسوله سواك ولكن لم نجد لك مدفعا

معناه: أردناه، ولم نقبل منه

ومثله قول الشاعر:

عصيت إليها القلب، انى لأمرها سميع، فما أدرى أرشد طلابها؟

معناه: فما أدرى أرشد هو أم غى ؟ فحذف. ومثله قول النابغة:

أزف الترحل غير أن ركابنا لما تنزل برحالنا، وكأن قد يريد: كأن قد زالت. فحذف.

ومن ذلك أن يضمر أحد المذكورين ويظهر فعل الآخر لهما. وذلك كقوله عز وجل: ﴿ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾[5] إذا قرئ بكسر اللام: المراد: وألحقوا

---

١ - الرعد: ٣١
٢ - التوبة: ٥٩
٣ - النور: ١٠
٤ - الزمر: ٩
٥ - المائدة: ٦

الغسل بأرجلكم. وكقوله عز وجل: ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾[1] ثم قال: ﴿ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾[2] والمراد: ويؤتون بفاكهة ولحم طير، لأن الفاكهة واللحم لا يطاف بهما. وكذلك تأويل من قرأ: ﴿ وَحُورٍ عِينٍ ﴾[3] بالجر تقديره: ويتزوجون بحور عين فحذف ذلك أجمع. ومنه قوله عز وجل: ﴿ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ﴾[4] تقديره، وادعوا شركاءكم.

وورد مثله فى الشعر:

علفتها تبنا ومـاء بـاردا ... حتى بدت همالة عيناها

أراد: سقيتها ماء باردا فحذفه

وقال الآخر:

إذا مـا الغـانيات بـرزن يوما ... وزججن الحواجب والعيونا

أراد: وكحلن العيونا، لأن العيون لا تزجج

وقال آخر:

ورأيت بعلك فى الواغا ... متقلـدا سيفـا ورمـحا

والمراد: حاملا رمحا، لأن الرمح لا يتقلد، لكنه حذف المراد

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾[5] والمراد إلى حيث أمر ربى. ومنه قوله: ﴿ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾[6] والمراد: مكركم بالليل والنهار. ومنه قوله: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾[7] فحذف.

---

١ - الواقعة: ١٨
٢ - الواقعة: ٢٠-٢١
٣ - الواقعة: ٢٢
٤ - يونس: ٧١
٥ - الصافات: ٩٩
٦ - سبأ: ٣٣
٧ - آل عمران: ١٠٦

ومن الحذف: إقامة الضمير مقام الذكر نحو قوله: ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾[1] يعنى: الشمس. ولم يجر لها ذكر. وهذا رأى عامة المفسرين، وان كان بعضهم قال: إن " المعنى: هو الصافنات الجياد " ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾[2] يعنى: على الأرض. ولم يجر لها قبل ذلك ذكر. وكذلك قوله عز وجل: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا ﴾[3] يعنى على ظهر الأرض. ومنه قوله عز وجل: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾[4] أراد به القرآن من غير أن يكون جرى له ذكر.

ومثله قول الشاعر:

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

يعنى: النفس. وكذلك قول لبيد

حتى إذا ألقت يدا فى كافر ... وأجن عورات الثغور ظلامها

يعنى: الشمس لقوله: ألقت يدا فى كافر.

ومن الحذف قوله عز وجل: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴾[5] يعنى: ذكرا حسنا وثناء جميلا.

ومن أقسام الفصاحة:

التجنيس: وهو أن يجمع بين كلمتين التقتا من حروف متجانسة وذلك مثل قوله عز وجل، حاكيا عن صاحبة سليمان – صلى الله عليه – ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[6] ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾[7] وكذلك

---

١ – ص: ٣٢
٢ – النحل: ٦١
٣ – فاطر: ٤٥
٤ – القدر: ١
٥ – الصافات: ٧٨، ١٠٨
٦ – النمل: ٤٤
٧ – يونس: ٢٦

قوله: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ ﴾[1] وقوله عز وجل حاكيا عن يعقوب – صلى الله عليه – ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾[2] وكذلك قوله عز وجل: ﴿ تَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[3] وكذلك قوله عز وجل: ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾[4] وقوله: ﴿ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم ﴾[5] ولم يكثر هذا الباب فى القرآن لما نذكره.

وكذلك فى أشعار المتقدمين، ولا المطبوعين من المتأخرين، وإنما استكثر ذلك من المتأخرين من كان يتكلف الصنعة.

سمعت بعض أهل الأدب يقول: " أن القليل من التجنيس يحسن الكلام، والإكثار يسلب الكلام بهجته " قال: " ومثله مثل الخال فى الحسناء، فى أنه يزيدها حسنا، وان كثرت الخيلان حتى يستوفى على عامة جسدها، أكسبتها الوحشة، وسلبتها البهجة " وصدق فيما قال ؛ لأن الاستكثار والجمع بين الحروف المتجانسة يوجب للكلام ضربا من التنافر، ألا ترى إلى قول الأعشى:

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعنى　　شاو مشل شلـول شلشـل شول

كيف يظهر عليه التنافر ؟ وكذلك قول الشاعر:

وقبر حـرب بمكـان قفـر　　وليس قرب قبر حرب قبر

فأما إذا وقع ذلك فى الكلام لمعا، فأنه يزيده حسنا وبهجة،فلذلك، والله أعلم، وجد فى القرآن قليلا، ولم يكثر.

ومن أقسام الفصاحة ما يسميه أكثر أهل الصنعة:

المطابق، وهو إيراد لفظتين يفيد كل واحدة منهما ضد ما تفيده الأخرى، نحو

---

١ – الروم: ١٠

٢ – يوسف: ٨٤

٣ – النور: ٣٧

٤ – الليل: ٧

٥ – التوبة: ٣٨، يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾[1] ونحو قوله عز وجل: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾[2] وقوله عز وجل: ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾[3] وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾[4] وقوله: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾[5] وقوله: ﴿ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾[6] وقوله: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴾[7] وقوله: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ ﴾[8] وهذا النوع فى القرآن كثير، بحيث يكاد يتعذر إحصاؤه، ولكنا قد نبهنا على الجميع بالجملة التى أوردناها، وإنما كثر هذا فى القرآن لأن كثرته لا توجب للكلام نبوا عن السمع، ولا تنافرا، كما يوجبه التجنيس.

ومن أقسام الفصاحة:

الفواصل، وهى الأسجاع، ومن الناس من كره تسميتها بالأسجاع إذا كانت فى القرآن والكلام فيه خارج عن غرضنا، لأن بيان المراد يغنى عن الاشتغال بالتسمية، وهذه العوامل تكثر فى القرآن، وتتجاوز حد الإحصاء والعد.

وأول ذلك فى فاتحة الكلام كقوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[9] ثم فى سائر السور إلى أخر القرآن. وهذه الفواصل تكون بحروف متفقة، تسمى أسجاعا، وتكون بحروف مختلفة، وتسمى موازنة، فما

---

١ - هود: ١١٤

٢ - آل عمران: ١٠٦

٣ - النحل: ٩٣، وفاطر: ٨

٤ - الانفطار: ١٣-١٤

٥ - فاطر: ١٩-٢٢

٦ - الفرقان: ٥٣

٧ - الحاقة: ١٩

٨ - الحاقة: ٢٥

٩ - الفاتحة: ٤-٥

يسمى من ذلك موازنة نحو قوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[1] لأن آخر الآية الأولى هو النون، وآخر الآية الثانية هو الميم، ومثل قوله: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾[2] ألا ترى أن آخر الآية الأولى هو اللام، وآخر الثانية هى الزاى، وآخر الثالثة هو الباء، وآخر الرابعة هو الدال، ومثله: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾[3] ونظائرها كثيرة، وما يسمى من هذه الفواصل، اسجاع. فمثل قوله عز وجل: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[4] إلى تمام أربع آيات وآخرها كلها: نون، ومثله: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾[5] ومثله قوله: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾[6] ولا وجه لتعداد أمثاله فى القرآن لكثرته، وتجاوز حد الإحصاء، ولأن شيئا من السور لا يخلو من ذلك. وهذا باب كبير من أبواب الفصاحة، إذ ورد مع الحلاوة، ورونق الطلاوة، وجاء به متسمحا، ولم يقهر عليه تكلفا وتعسفا، ولم يكن مما تنبو عنه الأسماع، وتمجه الأفهام، وهو مشهور عند العرب، لا يخلو منه كلام فصيح فى أحوال الإسترسال والإحتفال.

وللفصاحة أقسام كثيرة سوى ما بيناه، وليس منها قسم إلا وهو موجود فى القرآن، وقد نبهنا بما ذكرناه منها على ما لم نذكره.

---

١ - الفاتحة: ٢-٣
٢ - الكهف: ٧-١٠
٣ - المسد: ٤-٥
٤ - البقرة: ٢
٥ - الصمد: ١-٤
٦ - الفلق: ١-٢

ومن أقسام الفصاحة:

التلاؤم: وهو نقيض التنافر، وهذا الباب هو من أكثر أبواب الفصاحة وقد نبهنا عليه فى أول هذا الباب عند ذكرنا جزالة الألفاظ، ولكن أعدنا ذكره فى آخر الباب لنوضحه فضل إيضاح ؛ لأنه هو العمدة، وذلك أن عامة ما ذكرنا من أقسام الفصاحة، بل كلها غير هذا القسم للتكلف والتعمل فيها مجال ومسرح، ويمكن التوصل إليها باحتذاء أثار من تقدم فيها، بأن يتعلم طرائقها،ويستفاد مناهجها، وهذا القسم الذى هو التلاؤم يتعذر إلا أن يسمح به طبع مخصوص، ويعرف ذلك كل من له أدنى حظ من الأدب والمعرفة بنقد الكلام، وذلك أن التلاؤم به تكون العذوبة والحلاوة، وعنه تكون حسن ديباجة الكلام، ولهذا تجد الكلام المنظوم المنثور جيد السبك، رصين النظم، صحيح الوضع، متسق المعنى، ومع ذلك تجده نابيا عن السمع، نافرا عن الطبع، إذا لم تحصل له العذوبة التى يكون سببها التلاؤم.

واعلم أن التلاؤم يكون بتلاؤم الحروف، وتلاؤم الحركات والسكنات، وتلاؤم المعنى، فإذا اجتمعت هذه الوجوه، خرج الكلام غاية فى العذوبة، وفى حصول بعضها انحطاط درجة العذوبة عن الغاية، وسائر أقسام الفصاحة مع عدم التلاؤم يعد تكلفا، وكلما ظهرت الصنعة أكثر، كان الكلام أقرب إلى أن يكون تعسفا، وإذا حسن التلاؤم، وحسن معه يسير الصنعة، أشرق تأليف الكلام ووضعه، ألا ترى إلى قول الشاعر.

تمتع من شميم عرار نجد ... فما بعد العشية من عرار

ألا يا حبذا نفحات نجد ... وريا روضه بعد القطار

شهور ينقضين وما شعرنا ... بأنصاف لهن ولا سرار

لما حصل التلاؤم حصل فى النفس القبول التام مع قلة الصنعة فيه.

ومن ذلك قول القائل.

ولما قضينا من منى كل حاجة ... ومسح بالأركان من هو ماسح

ألا ترى إلى ديباجته، كيف حسنت؟ وإلى عذوبته كيف ظهرت؟ وإلى سلامته كيف استمرت؟ مع خلوه من الصنعة، ووقوعه بالبعد عن التعمل. وهذا باب تأملته فى الأشعار والخطب والرسائل والمحاورات فى الجد والهزل، وصح لك بيانه، وقام عندك برهانه، وهذا القسم من الفصاحة موجود فى القرآن من أوله إلى آخره، وأهل هذا الشأن يختلفون فى أجناس ذلك ولنبين له، ومن كان منهم أعرف بنقد الكلام، كان إلى تبيين ما ذكرناه أقرب، فأن ساعده على ذلك الطبع الجيد كان فى طريق تصوره أذهب، وقد يكون فى أهل كل صناعة من الشعر والخطب والرسائل من إذا سمع كلام غيره عرف صاحبه، وميز بين طبعه، وطبع غيره، كما حكى أن جريرا رأى ذا الرمة[1]، وهو ينشد قصيدة أولها:

نبت عيناك عن طلل بحدوى

فقال له: ألا آمرك بأبيات تلحقها بشعرك ؟ فقال بلى. فقال:

يعـــد الناســـبون بنـــى تمـــيم بـــيوت المجـــد أربعـــة كـــبارا

يعـــدون الـــرباب وآل تـــيم وســـعدا ثـــم حـــنظلة الخـــيارا

ويـــذهب بيـــتها المرعـــى لغـــوا كمـــا ألفـــيت فـــى الديـــة الحـــوارا

ثم أنشد ذو الرمة هذه القصيدة: الفرزدق مع هذه الأبيات.

فلما انتهى إليها قال له: مه. فان هذه الأبيات لاكلها أشد لحيين منك.

فميز بطبعه بين شعره وشعر جرير، وهذا ظاهر بين أهله، وإنما أردت أن أبين بهذا أن غباوة من يغضى عن هذه الحالة، وصفناها فى القرآن لا يؤثر فيها، لشهرتها

---

١ - ذو الرمة :هو غيلان بن عقبه وذو الرمة هو لقب لقبته به امرأة أحبها تدعى مية، طلب منها أن تسقيه ماء فأتته بماء وكان على كتفه رمه وهى قطعة حبل فقالت: اشرب يا ذا الرمة ويقال انه لقب بذى الرمة لقوله فى وصف الوتد:

لم يبق منـها أبد الابيـــــد * غير ثلاث ماثـــلات سود**

وغـير مرضـوخ القفا موتود * أشعـث باقـى رمـة التقليد.**

وظهورها عند أهله. والذى أحوجنا إلى هذا التنبيه على هذا القسم،أنه لا يظهر لكل من يفهم العربية، ولا يمكن كما أمكن سائر أقسام الفصاحة، لأن استدراكه يفتقر إلى العلوم الضرورية المعبر عنها بالطبع، كما أن الإتيان به مفتقر إليه، ولأن القرآن كله من هذا النمط، والأوجه ذكر آيات منه، لأنا نريد تنبيه المبتدئ والشادى عليه، فمن ذلك قول الله عز وجل:

﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾[1]

وما بعدها. وقوله عز وجل: ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢١ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝٢٢ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾[2] إلى آخر القصة، فتأمل هذه الألفاظ ووقوعها مواقعها لتعلم شرف هذا الكلام وهل تجد لفظة أبدل مكانها غيرها، فنابت منابها حسنا وعذوبة ورونقا؟ ألا ترى أنه عز وجل لو قال: والكوكب إذا سقط، أو إذا غرب، أو قال: إذا أفل، لم ينب فى الحسن مناب قوله تعالى: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾!

ورأيت فى كلام الجهال أنه لو قال: "والنجم إذا علا" كان أولى. ولن يكون ذلك فمن له حاسة فى هذا الباب، فبين اللفظتين فى هذا الموضوع فى باب الحلاوة والعذوبة ما لا يخفى على بصير، ولو قال: ما زاغ نبيكم عن الهدى أو ما أخطأ رسولكم، أو قال: ما حاد عن الرشد والهدى، وما أشبه ذلك لم يغن غناء قوله عز وجل: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ ولو قال: فهرب منها مذعورا، أو قال: مرعوبا أو غير ذلك من الألفاظ التى تؤدى معناها لم يسد مسد قوله عز وجل: "فخرج منها خائفا يترقب" حلاوة وعذوبة ولو قيل ولما أخذ على سمت مدين أو

---

١ - النجم: ١-٣

٢ - القصص: ٢١-٢٣

مضى حذاء مدين أو جهة مدين لم يقع موقع قوله عز وجل: ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ ﴾ وكذلك عامة ألفاظ هذه الآيات فتأملها تجدها على ما أقول.

واعلم أن كثيرا من الألفاظ تكون له حلاوة وعذوبة إذا وقع فى بعض المواقع دون بعض وإنما حصلت لهذه الآيات:" العذوبة التامة. لما حصل لحروفها من التلاؤم، ولحركاتها وسكناتها من الإعتدال، ولمعانيها من حسن الإطراد والمقاصد، لأن الحروف لو لم تتلاءم لكان يحصل للكلام بعض التنافر.

والحركات والسكنات لو لم تعتدل لم يتم حسن النظم، لأن كثرة الحركات توجب للكلام بعض الثقل، ألا ترى إلى ما روى أهل العروض فى جنس البسيط، وزعموا أنهم لقيهم رجل فأخذوا ماله وضربوا عنقه كيف حصل الثقل لما كثرت حركاته ؟

وكثرة السكنات توجب لنسج الكلام بعض الضعف والسخافة، ولهذا صار الكلام موزونا باعتدال الحركات والسكنات، ويتكسر البيت بخروج الحركات أو السكنات عن الإعتدال.

وأما حسن أطوار المعانى والمقاصد، فلا بد منه لأن موضوع العبارة أنما هو للمعنى، فإذا لم يحسن المعنى كان بمنزلة تعليق الحلى على المرأة الشوهاء.

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1]

وقوله عز وجل فى أول السورة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾[2] إلى آخر

---

١ - النمل: ٦١

٢ - النمل: ٤-٧

القصة، وعلى نحو من هذا عامة هذه السورة، وكذلك عامة السورة التى يذكر فيها القصص بعد هذا.

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾[1] إلى قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾[2] إلى قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴾[3]

وقوله عز وجل بعد هذه الآيات: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝٣٨ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ۝٣٩ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[4] إلى آخر القصة.

ولو تتبعنا الآيات الجارية هذا المجرى فى العذوبة، وحسن الديباجة لاحتجنا أن نذكر عامة آيات القرآن. ولكن نبهنا بما ذكرنا على ما سواه، فتأمل – رحمك الله – مواقع هذه الألفاظ، وحسن نظامها وخفتها على السمع،وقبول النفس لها، واهتزازك لسماعها لتعلم حقيقة ما ذكرناه، وأنت إذا راعيت هذا الباب فى عامة القرآن إذا تلوته تبنيت صحة ما قلناه، وظهر لك شواهده، ووضحت دلائله.

ومن كبير أقسام الفصاحة:

حسن التصرف: وهذا الباب أيضا لا يمكن بالتعمل، ولا يستجيب للمتكلف

---

١ – غافر: ١-٣

٢ – غافر: ٧

٣ – غافر: ١٠

٤ – غافر: ٣٨-٤٠

بها لا بد له من العلوم الضرورية المعبر عنها بالطبع، وهذا تفاضل الخطباء والشعراء وأصحاب الرسائل، وإذا تأملت تصرف القرآن فى المعانى المقصودة، عرفت أنه زائد فى الحسن على تصرف جميع أقسام الكلام وأنواعه، وشهد لك قبلك: أنه ليس من كلام البشر لمجاوزته فى الحسن جميع كلامهم؛ لأنك تجد عامة كلام الناس إذا أخذوا فى الاقتصاص والتصرف فى المعانى المختلفة، والأغراض المتباينة، والمقاصد المتغايرة يضعف بناؤه، ويهيئ نسجه، ويظهر عليه الاختلال، وحال القرآن بخلاف ذلك، ألا ترى إلى قوله عز وجل: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[1]

تأمل – رحمك الله – حسن هذا التصرف، فإنه ذكر الدليل على فساد قول من يضعف هذه الحوادث إلى الطبع، وحرره على وجه أسقط عنه كثيرا من الأسئلة بأن بين أن فى الأرض قطعا متجاورة، يقرب بعضها من بعض ليسقط سؤال من يقول: " أن الأرضين إذا تباعدت أطرافها، اختلفت التربة فكان منها الطيب والخبيث، لأن ذلك يبعد فى المتقارب منها، وكذلك الهواء لا يمكن أن ندعى أن تغيره هو المؤثر، لأن الأرضين ما لم تتباعد بعضها من بعض لا يظهر فى أهويتها التغير، وكذلك الماء إذا كان واحدا لا يمكن أن يدعى أن اختلاف الأكل راجع إلى اختلاف الماء، فدل بذلك على أنه من فعل القادر الحكيم تبارك وتعالى.

ومعنى هذه الآية: معنى "كلمي" فإذا أردت أن تعرف حال هذا التصرف. وشريف موقعه، فتأمل كلام المتكلمين، هل تجد لشئ منها هذا الجنس الرابع ؟ لأنه جمع فيها بين حسن المعنى وشرف الوضوح وجزالة اللفظ وعذوبته.

مع جمع المقاصد الكثيرة فى ألفاظ يسيرة، بحيث ربط بعضها ببعض، وحسم عنها مطاعن المعترضين، من ذلك قوله عز وجل بعد هذه الآية: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ

---

١ – الرعد: ٤

ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[1] فتأمل ما جمعت هذه الآية من المعانى بأن ذكر جهل القوم باستعجالهم السيئة قبل الحسنة، ثم بين عز وجل أنه قد أنزل العذاب بمن كان قبلهم من المنحرفين عن طاعته المسرعين إلى معصيته، زاجرا لهم عما هم فيه، ومحذرا لهم عواقب من قبلهم، ثم بين لهم أنه عز وجل يغفر لعباده، وإن كانوا ظالمين إذا تابوا وأنابوا، وأنه عز وجل شديد العقاب، لمن أصر وأقام على ما نهى عنه، فجمع هذه المعانى وكساها حسن اللفظ إذ فيه ما يسميه أهل الصنعة، المطابق، لأنه ذكر الحسنة والسيئة والمغفرة والعقاب مع الجزالة والعذوبة. فهل يكون فى التصرف أحسن من هذا ؟

ثم تأمل من هذه السورة قوله عز وجل: ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[2] إلى قوله: ﴿ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾[3] وتأمل عامة هذه السورة وما فى آياتها من حسن التصرف وضرب الأمثال، وتأمل قول الله عز وجل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾[4] ثم تأمل آية المواريث، فإن معناها معنى فقيها، فانظر هل تجد ما يقارب ذلك فى شئ من ألفاظ الفقهاء؟ وإذا أردت فتأمل أقاصيص القرآن. وأحكامه، لترى من ذلك ما يبهر عقلك، ويكشف لك أنه كلام مرتفع عن كلام البشر أجمع، وعلى هذا، تجد ما يتضمن الوعد والوعيد، وأدلة العدل والتوحيد.

وإذا تأملت ذلك فتأمل أشعار العرب من جاهلى، أو مخضرمى أو إسلامى وتأمل أشعار المحدثين، وتأمل الخطب المحفوظة عن النبى – صلى الله عليه – وعن أمير المؤمنين – عليه السلام – وسائر الصحابة، ومن بعدهم أو قبلهم من الفصحاء، تجد القرآن مباينا لها، مبرا بمزايا أقسام الفصاحة عليها، فيتضح عندك أنه

---

١ – الرعد: ٦

٢ – الرعد: ٨

٣ – الرعد: ١٤

٤ – النساء: ١

على ما ادعيناه فى أعلى طبقات الفصاحة، وأن من ذهب من العلماء إلى أن الإعجاز راجع إلى مجرد الفصاحة لم يبعد عن الصواب كل البعد، وإن كان الأصح عندى على ما قدمت: أنه راجع إلى النظم والفصاحة معا.

ومما يبين بلوغ القرآن غاية الفصاحة: أن الشاعر ربما ضمن لفظة من القرآن بيتا من الشعر أو حشا الخطيب بها فصلا من الخطب، أو وشح الكاتب بها موضعا من الرسالة، فيتميز بحسنها عن غيرها، ويتبين ببهجتها على ما سواها، ويصير الموضع الذى يضمنها غرة من سائره، بحسنه، الذى اكتسبه من تلك اللفظة، وزبرجه الذى استعاره منها، ومما يبين ذلك: أن كثيرا من الفصاحة، وجد فى كلامهم كلمات فصيحة رائعة صارت لبلاغتها أمثالا سائرة، ووجد معناها فى القرآن إلا أنك إذا تأملتها وجدت التفاهم بينها كثيرا، وظهر لك فضل ألفاظ القرآن على تلك الألفاظ ظهورا تاما، فمنها ثلاث كلمات تذكر عن أمير المؤمنين – عليه السلام. أحدها: "من جهل شيئا عاداه " ومثله قوله الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾[1] وقوله: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِۦ ﴾[2]

والثانية: " أبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما " وفى قريب من معناه قوله عز وجل: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ﴾[3].

والثالثة: " المرء مخبوء تحت لسانه "[4] وفى قريب من معناه قوله عز وجل:

---

١ - الأحقاف: ١١

٢ - يونس: ٣٩

٣ - الممتحنة: ٨

٤ - إن الكائن الإنسانى ينتقل من الواقعة إلى الحقيقة فيما يبين معه صدقه من كذبه، وما أكثر ما يتضح من قصديات مراوغات الشعور، ويتبدى جلياً فى فلتات اللسان، وقد تكشفه هفوة أو إماءة أو صورة جسم أو حتى فى الصمت، ففى الصمت ذاته لغة، مما يذكرنا بعبارة " فرويد ": من كانت له عينان ليرى وأذنان ليسمع بهما فبوسعه أن يقتنع بأن ما من إنسان يستطيع أن يكتم سراً. فإذا صمتت شفتاه ثرثرت أطراف أصابعه، فالإفشاء يتضح من كل مسامه، ومن ثم فإن إخراج أشد الثنايا اختباءً فى النفس إلى حيز الشعور لهو مهمة قابلة تماماً للتحقق". لقد كانت أمثال هذه الهفوات تنسب قبل

﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾[1] فتأمل التفاوت الذى بين تلك الكلمات الثلاث وبين ألفاظ الآيات التى ذكرناها يبين لك صحة ما ادعيناه.

ومن ذلك قول الله عز وجل: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾[2] فانظر كم بينه وبين قول الشاعر:

فارعا مثل الطود تحسب أنه ... وقوف لحاج والركاب تهملج

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[3] وفى معناه قيل ما قدمنا ذكره: " بعض القتل أحيا للجميع: وقيل: " القتل أفل للقتل " فلم تلحق واحدة من الكلمتين بشأن قوله عز وجل: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾.

ومما افتخر به النابغة بقوله:

فإنك كالليل الذى هو مدركى ... وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

فانظر أين يقع ذلك من قوله عز وجل: ﴿ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[4] ومن قوله: "وأن ما سكن فى الليل والنهار " وقد ذكرنا فيما مضى ما قيل فى معنى قول الله تعالى: ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾[5].

وقد عد من فصيح الكلام ما حكى عن بعض المتقدمين من قوله:

" سل الأرض من شق أنهارك، وغرس أشجارك، فأخرج ثمارك "

فإن لم يجبك حوار أجابتك اعتبارا فانظر أين يقع ذلك من قول الله عز

فرويد إلى السهو والغفلة. ولا ينكر فرويد ذلك، غير أنه يرى أن هذه العوامل لا تكفى لتفسير جميع هذه الهفوات. فقد بين أن أغلب هذه الهفوات ورائها دافعاً لا شعورياً أو شبه شعورى لا يفطن الشخص إلى وجوده (للمزيد راجع، موسوعة علم النفس والتحليل النفسى. فرج طه وآخرون، دار سعاد الصباح، ١٩٩٣).

١ - سورة محمد: آية ٣٠

٢ - النمل: ٨٨

٣ - البقرة: ١٧٩

٤ - البقرة: ١٩

٥ - المنافقون: ٤

وجل: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾[1] بل أين يقع ذلك من قوله: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾[2]

ومن الكلام الفصيح قول الشاعر:

بكت عيني وحق لها بكـاها ... وما يغني البكاء ولا العويل

لكن أين يقع ذلك من قول الله عز وجل حاكيا عن أهل النار: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾[3] وتتبع هذا مما يطول لكثرته، وفيما ذكرناه كفاية وفيه تنبيه عى ما لم نذكره.

---

١ - النمل: ٦٠

٢ - ق: ٧-١١

٣ - إبراهيم: ٢١

الفصل السابع

الكلام فى ذكر ما فى القرآن من الإخبار عن الغيوب

من ذلك قول الله عز وجل: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (١)

وقوله: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (٢)

وهذا من الغيب الذى لا يعلمه إلا الله عز وجل ؛ لأن البشر لا سبيل لهم أن يعلموا كلاما يوجد مكتملا على التحدى والتقريع على العجز عن الإتيان بمثله، فلا تقع له معارضة أبدا، سيما والقوم الذين تحدوا به غاية فى العداوة للمتحدى مع أنهم أهل البلاغة والمعرفة بذلك الشأن بل المعلوم أن المعارضة تقع لا محالة منهم إذا تمكنوا منها.

فإن قيل: فما يؤمنكم أن تقع المعارضة بعد هذا الوقت وإن لم تكن وقعت إلى هذه الغاية ؟

قيل له: يؤمننا ذاك أن الخبر صدق، ويعلم أنه صدق، أنه لو لم يكن صدقا لكان لا يجوز أن يجرى الأمر فى مخبره على ما أخبر نحوا من أربعمائة سنة مع الأحوال التى

---

١ - البقرة: ٢٣-٢٤

٢ - الإسراء: ٨٨

ذكرناها، لأن ما يقال على سبيل التخمين والرجم لا يجوز أن يستمر الأمر فى مخبره على هذا الحد فعلم أنه خبر صدر عن علام الغيوب.

وأيضاً: قد علمنا أن الدواعى إلى إيراد المعارضة لم تكن حبست عن المطامع وكانت الصنعة أيضا فى نفسها أقوالا فى أمثلة العرب، ولم يكن يكمن فيها من الفساد ما يكمن الآن، وعلى استمرار الأزمان، ومضى الأعصار، تزداد الصنعة ضعفا والدواعى قلة -لما تعذر وقوعه - فلما تعذر وقوعها فيما سلف من الزمان كان وقوعها فيما بعد أيسر تعذرا.

وأيضا ظاهر الخطاب هو لأهل ذلك العصر، وإن كنا قد عرفنا بدليل سوى الظاهر، أن المراد به إلى آخر الدهر وإذا لم تقع المعارضة من أهل ذلك العصر وجب كون الخبر صدقا.

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1] وقال أيضا فى السورة التى يذكر فيها الجمعة: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2]

فأخبر أنهم لا يتمنون الموت أبدا، فوجد مخبر الخبر على ما أخبر به، ولم يقل أحد منهم، أنى أتمنى الموت، هذا مع ما كان عليه اليهود من شدة الحرص على تكذيبه وإبطال دعواه، وتوهين أمره، حتى أنهم استهانوا بالموت، وما يجرى من القتل الذريع عليهم فى جنب استمرارهم على معاداته، وتحققهم بمنأواته، فلولا أن الخبر صدر من عند علام الغيوب لم يكن يجوز أن يورده النبى - صلى الله عليه وعلى آله - خشية أن يظهر منهم ما يوجب تكذيبه.

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ

---

١ - البقرة: ٩٤-٩٥

٢ - الجمعة: ٦-٧

﴿تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[1] يعصمه الله عز وجل من الناس كما وعده، وجرى الأمر فيه إلى قبضه – صلى الله عليه وعلى آله – على ما دل عليه الخبر، وهذا أمر الغيب الذى لا يعلمه إلا الله – سبحانه – لأن الإنسان لا يدرى ما يجرى عليه إلى أن يموت، سيما من كان على مثل حاله – صلى الله عليه وآله – فى كثرة الأعداء.

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾[2] وهذه الآية قد تضمنت خبرين من أخبار الغيوب، أحدهما: ما وعدهم الله عز وجل به من كون إحدى الطائفتين لهم، وأنه يظفر بها، والطائفتان أحدهما: العير، التى كانت مع أبى سفيان، والثانية: الذين خرجوا للمحاماة عنهم من أحزاب قريش، فأظفرهم الله- تعالى – بأحزاب قريش يوم بدر، وأنجز لهم الموعود.

فإن قيل: الآية نزلت بعد الكائنة، وإذا كان هذا هكذا، فليس فيه خبر عن الغيب ؛ لأنه خبر عن الواقع المعلوم.

قيل له: الآية تضمنت تقدم الوعد على الكائنة، لأن الوعد لابد من أن يتقدم الموعود، ولولا أنه كان معلوما عند أصحاب رسول الله – صلى الله عليه –أن ذلك الوعد كان قد حصل لهم لم يكن النبى – صلى الله عليه – ليتلو عليهم ما تلاه ؛ لأنه مجرى أن يقول لهم: قلت لكم أمس شيئا: وهم يعلمون أنه لم يقله لهم وأن يفضح القائل ويظهر كذبه، ويقوله بين أصحابه، فبان أن الوعد فى الأمل والوعيد كان قد تقدم. وأن الموعود جرى على ما وعدوا به، ومثل هذا لا يجوز أن يصدر إلا عن علام الغيوب سبحانه وتعالى.

ويبين ما قلناه من أن الوعد كان قد تقدم: قوله عز وجل بعد هذه الآيات: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم﴾[3] والبشرى لا تكون إلا قبل حصول

---

١ - المائدة: ٦٧

٢ - الأنفال: ٧

٣ - آل عمران: ١٢٦

الشئ، فدل ذلك أيضا على أنهم كانوا مبشرين قبل وقوعه، الوجه الثانى الذى تضمنته الآية من الإخبار عن الغيوب: قوله عز وجل: ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ وهى العير التى كانت مع أبى سفيان، فأخبر عما فى نفوسهم، ولم يقل أحد منهم أن الذى كان فى نفسى خلاف ذلك. على أن ذلك لو لم يكن معلوما أنه صدق، وأنه من عند علام الغيوب، كان النبى – صلى الله عليه وآله – لا يتلوه عليهم، خشية أن يكون المخبر بخلافه فيظهر كذبه.

فإن قيل: هذا معلوم، لكل عاقل أنكر فيه، فأن المعلوم من أحوال الناس: أن الظفر بالأموال التى لا مدافع عنها أحب إليه من الظفر بالمقاتلة الذين لا يظفر بهم إلا بعد شدة، وبعد أن يقتل منهم من يقتل ويجرح من يجرح.

قيل له: هذا الذى ادعيتم غير مستمر، وان كان الأكثر ما ذكرتم. وذلك أن من الناس من يكون قتل الأعداء وأسرهم وجرحهم والظفر بهم أحب إليه من كثير من الأموال التى تأتيه عفوا، ولهذا ترى الرجل ينفق ماله من طارف وتليدا ليتوصل به إلى النكاية فى العدو، وإذا ثبت ذلك ثبت أن أخباره عن جميعهم – مع كونهم معروفين بشدة الحمية والعصبية، أنهم يودون: أن غير ذات الشوكة تكون لهم: خبر عن الغيب.

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾[1] والخبر عن أن الكفار الذين كانوا يعادون رسول الله – صلى الله عليه – يغلبون، خبر عن الغيب الذى لا يعلمه إلا الله تعالى، ولأنه لا سبيل لأحد إلى أن يعلم أن أولئك الكفار، مع كثرة عددهم، ووفور عددهم، هم يغلبون لا محالة، وقد جرى الأمر على ما ورد الخبر به، فإن جميعهم غلبوا وقهروا واستذلوا.

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[2] ذكره عز وجل فى السورة

---

١ – آل عمران: ١٢

٢ – التوبة: ٣٣

التى يذكر فيها التوبة والسورة التى يذكر فيها الصف والسورة التى يذكر فيها الفتح، وفى هذه السورة آخر الآية: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾[1] فأكد الخبر هذا التأكيد، وكرر ذكره فى هذه السورة، ثم أنجز الله عز وجل وعده لنبيه – صلى الله عليه – بإظهار دين الإسلام، ونشر دعوته فى الآفاق، فطبقت الشرق والغرب، وعمت العرب والعجم وخلصت إلى الروم والهند والترك وصار كثير من البلدان المنسوبة إلى هؤلاء – أعنى الروم والهند والترك من بلاد الإسلام – والفتوح إلى الآن متصلة ترد بها الأخبار من النواحى والأقطار.

فأما بلاد العرب والعجم – بحمد الله ومنه – فقد صارت كلها بلاد الإسلام، ولم يبق أهل ملة من الملل، ولا أمة من الأمم، إلا نفذ فيهم الإسلام، حتى صار هذا الدين أعلى الأديان كلمة، وأرفعها حكمة، ولو كره المشركون، كما قال الله عز وجل.

وليس يخفى على عاقل أنصف نفسه: أن الخبر بهذا خبر عن الغيب الذى لا يطلع عليه أحد إلا الله عز وجل، الذى يعلم ما كان وما يكون، وما لا يكون أن لو كان كيف كان يكون، فسبحانه لا نشرك به شيئا، ولا نتخذ من دونه إلها ولا وليا.

وفى هذا المعنى قال – صلى الله عليه – وصدق، ونحن على ذلك من الشاهدين، "زويت لى الأرض، فأريت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها"[2].

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِ ﴾[3] وهذه الآية قد تضمنت ثلاثة من الأخبار عن الغيوب، أحدها: قوله عز وجل: ﴿ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴾ هذا من

---

١ – الفتح: ٢٨

٢ – أنظر صحيح مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة.

٣ – الروم: ١-٥

الغيب، الذى لا يعلمه إلا الله عز وجل، والثانى، قوله: ﴿ فِى بِضْعِ سِنِينَ ﴾ والبضع فوق الثلاثة ودون العشرة، وهذا التحديد أيضا من الغيب الذى لا يعلمه إلا الله، والثالث: قوله عز وجل: ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ﴾ فأخبر أنهم يفرحون فى ذلك الوقت بنصر الله، وهذا أيضا من الغيب؛ لأنه خبر عن بقاء المؤمنين إلى ذلك الوقت مع قلتهم، وطمع الأعداء فى ابتسافهم، وعن أنهم يفرحون، ولا تعرض هناك أحوال تمنعهم الفرح؛ لأن هذه الآية نزلت بمكة قبل الهجرة، فى حال ضعف المسلمين، وقلتهم، واستيلاء المشركين عليهم، والقصة فى ذلك مشهورة وهى أن الفرس كانوا غلبوا الروم ففرح لذلك المشركون واغتم المسلمون ؛ لأن الروم[1] كانوا أهل الكتاب فكان المسلمون بهم آنس.

---

١ - الروم المعنيون فى الآيات هم الروم البيزنطيون، أصحاب القسطنطينية (استانبول من بعد أو الآستانة) الناطقون باليونانية، لا الروم الغربيون، أصحاب روما، الناطقون باللاتينية. فقد انهارت إمبراطورية الروم الغربية نهائياً بسقوط روما فى أيدى القوط عام ٤٧٦م، ولم يعد من الروم عصر نزول القرآن مطلع القرن السابع الميلادى سوى روم المشرق، أى روم "بيزنطة" التى ورثت مجد روما القديم وخلفتها على أقاليمها فى مصر والشام، بالإضافة إلى أراضيها الأصلية فى البلقان، وآسيا الصغرى (الأناضول). ولأن حكام بيزنطة كانوا سلالة من قياصرة روما عند انقسام الإمبراطورية عام ٣٩٥م إلى غربية فى روما وشرقية فى بيزنطة، فقد تسمى الملوك البيزنطيون أيضاً باسم القياصرة (المأخوذ من اسم قيصر): قيصر فى روما وقيصر فى بيزنطة. وما أن سقطت روما فى أيدى القوط، وآل فيها الحكم إلى أقوام من غير الروم، حتى بات قيصر بيزنطة وحده هو القيصر، وباتت بيزنطة أو القسطنطينية الوريث الشرعى لمجد روما القديم، بل باتت بيزنطة هى روما، ليس فقط فى أعين البيزنطيين أنفسهم الذين لم يتردد بعضهم فى إطلاق إسم روما مجازاً على عاصمتهم وإنما أيضاً وبالأخص فى أعين أهل الأقاليم التابعة الذين لم يروا فى انتقال تبعيتهم من روما إلى بيزنطة سبباً يدفعهم إلى تعديل مسمى الدولة التى يخضعون لها: إنهم القيصر وولاة القيصر، وهم أيضاً الروم، لاتينيين بالأمس أو بيزنطيين اليوم، أصحاب روما الأولى أو أصحاب روما الثانية. إنهم الروم فى كل حال. لهذا كان العرب عصر نزول القرآن الكريم يقولون "الروم" يعنون "اليونان" بل ما زلت تسمع فى العربية العامية لفظة "الرومي" فى موضع "اليوناني" بل لم تعرف العربية الفصحى "اليونان" واليونانى إلا منذ العصر العباسى فى سياق ترجمات فلاسفة اليونان إلى العربية. على أن العرب كانوا يتوسعون فيطلقون اسم الروم على سكان شمالى البحر الأبيض المتوسط (بحر الروم عند قدامى الجغرافيين العرب)، فهم إذن الأوروبيين بوجه عام. ورغم ذلك كله فإن لفظة الروم هى فى أصلها نسبة إلى روما بلا جدال، سواء أردت روما التى فى إيطاليا أو روما الثانية التى على ضفاف البسفور أى بيزنطة المعنية فى الآيات.

والفرس[1] كانوا مجوسا[2]، وكان المشركون بهم أشبه، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وهم من بعد غلبهم سيغلبون، فى بعض سنين ﴾ ففرح المسلمون، وأنكره المشركون واستبعدوه، فخاطر، أبو بكر أمية بن خلف الجمحى، على أن تعود الغلبة للروم على الفرس إلى ثلاث سنين، وظن أن بضع معناه ثلاث، فقال له رسول الله – صلى الله عليه _ " زد فى الأجل، وفى الخطر " وكان ذلك قبل نزول التحليل والتحريم، وحين كانت المخاطرة مباحة، ففعل أبو بكر ذلك، وظهرت الروم على فارس لتمام سبع سنين، ففرح المسلمون يؤمئذ، والنصر[3] الذى ذكر الله عز وجل: أن المؤمنين

---

١ – هم الطرف الآخر فى المغالبة المشار إليها فى الآيات، الذين لم تسمهم الآيات اكتفاءً بذكر عدوهم اللدود الغالب يوم يفرح المؤمنون بنصر الله، ولاستفاضة شهرة هذا الصراع الأزلى بين قطبى العالم القديم: كسرى وقيصر.

٢ – عرف العرب فى الجاهلية الديانة المجوسية، والتى من تعاليمها عبادة الشمس والقمر وتقديس النار، وكانت منتشرة بين الأشوريين وتسربت الى أنحاء الجزيرة خاصة تميم واليمن، والديانة فارسية قديمة وهم المجوس أتباع ذرادشت و ترى العالم كصراع مستمر بين القوى الكونية المستقلة. وفى معتقدات هذه الديانة فإن أهورامزدا هو رب الخير أو الحكمة وخالق العالم المادى، وأنجرامينو هو كل الموت وروح الشرّ، وأن الإنسان هو كائن حرّ وعليه واجب مساعدة الانتصار لأهورامازدا. انتشرت هذه الديانة فى إيران خصوصًا بعد ثمانية قرون من موت زرادشت، وبعد أن انحسرت إلى حد ما، ديانة الماجى المجوسية التى اقتصرت حينها على الملوك والكهنة. (تفسير الطبرى (١٧ / ٩٧)، والمفصل (٦ / ٦٩١)، والمعجم الذهبى (مادة مجوس)

٣ – النصر فى اللغة هو العون والمظاهرة والتأييد، ليس هو بذاته كما يظن الأكثرون الفوز والفتح والغلب، وإنما هو العون والتأييد المؤديان إلى الفوز والغلب. ومن هنا تفهم عبارة "نصر الله" حيثما وقعت فى كل القرآن بمعنى تَدَخُّله عز وجل بمدد من عنده، ملائكة وغير ملائكة، لنصرة فريق وتخذيل فريق، فتنقلب على الفور موازين القوى لصالح الفريق الذى "نصره الله" يعنى أيده وأعانه، فينتصر الذين كان نصر الله فى معيتهم ليكونوا هم الغالبين. ومن دقيق القرآن أنه حين تحدث عما كان بين الفرس والروم استخدم مادة "غلب" ولم يستخدم مادة "نصر" لأن الغلب هنا وهناك كان بأمر الله، أى بقضائه وتدبيره ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾ [الروم: ٤] ولم يكن بانتصاره عز وجل لفريق على فريق، أى بتدخله عز وجل لصالح فريق ضد فريق بمدد من عنده، ملائكة وغير ملائكة. وإلا لقلت أن الله كان مع الفرس يوم غلبوا الروم، يعنى كان راضياً عن الفرس ساخطاً على الروم، ثم سخط على الفرس ورضى عن الروم فانتصر للروم عليهم. ولا يصح هذا لأن الله عز وجل لا يجوز عليه البُداء، "يَبدو" له الأمر فيمضيه، ويبدو له العكس من بعد فيمضيه، إن صح هذا بين البشر – وهو مذموم لأنه تذبذب بين النقيض ونقيضه – فهو محال فى حق العزيز الحكيم. وقد كان الفرس مجوساً يوم كانت الكرة لهم، وكانوا مجوساً أيضاً يوم كانت الكرة عليهم. وكان الروم أهل كتاب يوم

به يفرحون، فقد قيل: أنه نصر الله عز وجل نبيه – صلى الله عليه – بما أظهر له من الإعجاز الظاهر باطلاعه على هذا الغيب الذى لا يعلمه إلا الله عز وجل لأن فيه آية بينة، ودلالة واضحة على نبوته، ويحتمل أيضا: أن يكون المراد له: أن ذلك الفرس كان فيه قوة للمسلمين، ونصره لهم على المشركين، لما كان من ميل المشركين إليهم وطمعهم فى الإعتضاد بهم ؛ لأن الله عز وجل لا يجوز أن ينصر الكفار بعضهم على بعض، وإن كان جائزا أن يزيد فى خذلان بعضهم إذا كان فى ذلك ضرب من المصلحة.

غلبهم الفرس المجوس، وبقوا أهل كتاب يوم أديل لهم من الفرس. أما حين تحدثت الآيات عن نصر الله فهى تريد انتصار الله عز وجل للمؤمنين الذين يفرحون بنصره. والمؤمنون اصطلاح قرآنى يراد منه المسلمون أهل القرآن لا أهل الكتاب. والأصل فى هذا أن الله عز وجل الذى لا ينصر باطلاً على حق، لا ينصر باطلاً على باطل، وإنما ينتصر فحسب للحق على الباطل ﴿ **بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ** ﴾ [الأنبياء: ١٨]. ومن جهة أخرى فليس أهل الكتاب – يهود ونصارى – بأولياء للذين آمنوا حتى يفرح المؤمنون – كما تنبأت الآيات – بنصر الله يوم ينتصر الروم على الفرس المجوس كما توهم البعض، بل قد نهى الله الذين آمنوا عن توليهم ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾ [المائدة: ٥١]، يبين لك عز وجل علة النهى عن توليهم، أى لأنهم أولياء بعض، يعنى أولياء بعض عليك، لا تستنصر بإحدى الطائفتين على أختها، ولا تستنصر بطائفة منهما على عدو لك، فلن يصدقوك الولاية، بل هم معاً عليك، لا يألونك خبالاً. ومن يتولهم فقد ظلم ؛ لأنه صار فى معيتهم وبات منهم، هذا النهى عن تولى أهل الكتاب من إعجاز القرآن، فلم يعرف التاريخ قديمه وحديثه موقفاً انتصر فيه أهل الكتاب للمسلمين على عدوهم، وإنما هم ينتصرون لعدو المسلمين عليهم، أو ينتصرون لبعض المسلمين على بعض نكاية فيهم جميعاً. لم ينتصر الله للفرس على الروم يوم كانت الغلبة للفرس، ولم ينتصر أيضاً للروم يوم تحققت نبوءة القرآن بكرة الروم عليهم. ولكنه عز وجل – فى المرتين – أعمل فى كلا الفريقين قوانين النصر والهزيمة، فانتصر الذى اتخذ للنصر عدته وانخذل الذى توانى وقصر. أى أنه عز وجل خلى بين الفريقين وبين تلك القوانين، ولم "يتدخل" لنصرة فريق على فريق، فيقلب موازين القوى لصالح أولئك الذين كان نصره فى معيتهم، كما فعل مع المسلمين فى بدر. فلا يصح فهم قول الله عز وجل فى الآيات الست من مفتتح سورة الروم على أنه – كما توهم البعض – فرح المؤمنين بانتصار الروم على الفرس، وإنما النصر المبشر به بصر آخر تتنبأ به تلك الآيات للمؤمنين – أى المسلمين – على عدوهم مشركى قريش، فيفرح المؤمنون بنصر الله إياهم، دليلك فى هذا – فوق ما تقدم – تعقيبه عز وجل على هذه البشرى بقوله: ﴿ **وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الروم: ٦] فليس لروم أو فرس وعد عند الله عز وجل، وإنما الوعد للمؤمنين الذين آمنوا.

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[1] وقال في السورة التي يذكر فيها الصف: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[2] فوعد عز وجل، أن يتم أمر الدين الذي ابتعث به نبيه – صلى الله عليه وآله – على كره من أعدائه الكفرة، ومع كونهم مريدين إطفاء نور الحق وطمسه، فجرى الأمر فيه على ما وعد، وهذا من الغيب الذي لا يطلع عليه إلا الله عز وجل.

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾[3] بعد قوله: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾[4] إلى آخر الآية.

ومن المعلوم: أن نصر الله عز وجل لنبيه – صلى الله عليه – إلى أن اختار الله له دار كرامته كان نصرا عزيزا، وهذا مما لا يجوز أن يكون اطلع عليه إلا الله عز وجل. ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾[5] يعني يوم الأحزاب، ثم يقول بعد ذلك: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾[6] فدل بهاتان الآيتان على أن النبي – صلى الله عليه وآله – كان وعد أصحابه وعدا ظاهرا، أن الأحزاب يأتون وأن الله ينصرهم عليهم حتى عرفه المؤمنون والمنافقون، وانتشر فيهم حتى قال المنافقون: ﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾[7] وقال المؤمنون حين رأوا الأحزاب: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾[8] وهذا مما لا

---

١ – التوبة: ٣٢

٢ – الصف: ٨

٣ – الفتح: ٣

٤ – الفتح: ١

٥ – الأحزاب: ١٢

٦ – الأحزاب: ٢٢

٧ – الأحزاب: ١٢

٨ – الأحزاب: ٢٢

يعلمه: ولا يطلع عليه أحد إلا الله عز وجل لأنه لا سبيل إلى العلم بأن الأحزاب يأتونه، وأنهم مع قوتهم وكثرتهم ينهزمون لا محالة.

فإن قيل: هذه الآية نزلت بعد يوم الأحزاب.

قيل له: هذا، وإن كان كذلك ففيها دلالة على أن الوعد به كان قد تقدم. ألا ترى إلى ما حكى الله تعالى عن المؤمنين والمنافقين فى ذلك. والنبى – صلى الله عليه – تلا ذلك عليهم، ولو لم يكن الأمر كذلك لم يكن ليتلو – صلى الله عليه – ذلك عليهم، ويدعيه لئلا يكون منها لهم على كذبه، حاشاه – صلى الله عليه وعلى آله – من ذلك.

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾[1] فأخبر عما فى ضمائرهم من إرادة الفرار تعللا بأن بيوتهم عورة، وهذا لو لم يكن كذلك لظهر منهم إنكاره.

ومن ذلك قوله فى السورة التى يذكر فيها ﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾[2]: ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾[3] وهى سورة مكية. أولها: ذكر قريش، وما كان من قولهم: ﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾[4] فأخبر عز وجل فى حال ضعف النبى – صلى الله عليه – وقلة أنصاره وقوة مشركى قريش أنهم جند مهزوم، فكان الأمر على ما أخبر به – عز وجل – هزموا يوم بدر.

وكذلك قوله فى السورة التى يذكر فيها القمر، وهى أيضا سورة مكية، مخاطبا لقريش: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾[5] فأخبر أنهم يهزمون ويولون الدبر، وهذا أمر الغيب، الذى لا يعلمه إلا الله عز وجل.

---

١ – الأحزاب: ١٣

٢ – ص: ١

٣ – ص: ١١

٤ – ص: ٤

٥ – القمر: ٤٣-٤٥

ومن ذلك قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾[1] فكان الأمر على ما أخبر به عز وجل؛ لأن الكفار أنفقوا ما أنفقوا من الأموال للخروج إلى أحد،وصار فى آخر الأمر عليهم حسرة. وكذلك ما أنفقوا لجمع الأحزاب، وما أنفقه (مالك بن عوف)[2] حين جمع (هوازن)[3] يوم حنين، صار جميع ذلك حسرة عليهم، وغلبوا على ما أخبر الله عز وجل وهذا أيضا من الغيب الذى لا يطلع عليه أحد إلا الله عز وجل، وليس لأحد أن يدعى: أن هذه الآية نزلت بعد الإنفاق لقوله عز وجل: "فسينفقونها" والسين إذا دخلت على الفعل المضارع حققت أنه للاستقبال، فدل ذلك على أن الآية نزلت قبل الإنفاق.

ومن ذلك قول الله عز وجل: ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾[4] فجرى الأمر على ما أخبر الله عز وجل به، فإنه تبارك وتعالى عذب الكفار بأيدى المؤمنين إذ أمكنهم من قتلهم وأسرهم وسبى ذراريهم، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم وأخزاهم، كما وعد سبحانه، وتصر المؤمنين عليهم وشفى صدورهم وأذهب غيظ قلوبهم كما أخبر. وهذا مما لا يجوز أن يعلمه قبل كونه إلا الله عز وجل.

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ ﴾[5]

---

١ - الأنفال: ٣٦

٢ - مالك بن عوف النضرى - سيد هوازن- .

٣ - هوازن إحدى قبائل العرب فى شبه الجزيرة العربية أنتشرت بعد الفتوحات الإسلامية فى الشام و العراق و مصر وبلاد المغرب و الأندلس يرجع نسبها إلى هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

٤ - التوبة: ١٤-١٥

٥ - الحشر: ١١-١٢

وهذه قصة مشهورة، وهى قصة بنى النضير[1] وذلك أنهم كانوا فى عهد رسول الله – صلى الله عليه وآله – فغدروا ونقضوا العهد، وهموا باغتيال رسول الله – صلى الله عليه وآله – فأوحى الله بذلك إلى نبيه – صلى الله عليه – وبما تآمروا بينهم. وهذه إحدى المعجزات.

ثم تقدم إليهم رسول الله – صلى الله عليه – بمفارقة موضعهم، والجلاء عنه، وأعلمهم أنهم نقضوا العهد وبما تآمروه بينهم، فأذعنوا وعزموا على الجلاء فراسلهم عبد الله بن أبى بن سلول[2]، وكان من كبار المنافقين، ووعدهم بالنصرة، وأنه مع أصحابه معهم، وأنهم إن أخرجوا إلى الجلاء أجلوا معهم، وإن قاتلوا نصروهم، وأنهم لا يطيعون فيهم رسول الله –صلى الله عليه – فشهد الله عز وجل أنهم لكاذبون وأنهم لا يوفون لليهود، بما وعدوهم فجرى الأمر فى ذلك على ما أخبر الله به عز وجل، وشهد به عليهم، وأن النبى – صلى الله عليه – أخرج بنى نضير عن حصونهم، فلم يخرج المنافقون معهم، ولا نصروهم فى قتل رسول الله – صلى الله عليه وآله – بنى قريظة صبرا، وسبى ذراريهم ونسائهم بعدما حاصرهم. وحارب أهل خيبر[3] حتى ظفر بهم وبديارهم وأموالهم، فلم ينصروهم، كما أخبر الله عز وجل فى ذلك عنهم، فكان فى القصة ثلاث من المعجزات، إحداها: أن النبى – صلى الله عليه – كان مضى إلى بنى النضير، ومعه أمير المؤمنين – عليه السلام- وأبو بكر وعمر وغيرهم فى أمر كان عرض وجلس مسندا إلى جدار حصنهم – صلى الله عليه وعلى آله _ فتآمروا فيما بينهم، واتفقوا على أن يرسلوا عليه من فوقه صخرة تقتله،

---

١ – النضير: اسم قبيلة من اليهود الذين كانوا بالمدينة المنورة، فى وادى بُطحان والبوُويرة (ياقوت، معجم ٥ / ٢٩٠)

٢ – يلقب المسلمون عبد الله بن سلول بلقب (كبير المنافقين) لديه ولد اسمه عبد الله (على اسم أبيه) وأصبح لولده شأن كبير فى الإسلام وقتل فى معركة اليمامة وهو سيد هوازن وكان على وشك ان يكون سيد المدينة قبل أن يصلها الرسول صلى الله عليه وسلم خاض بن السلول صراعا" مريرا علنيا فى قليل من الأحيان وسرى فى كثرة مع محمد صلى الله عليه وسلم واتباعه للسيطرة على مقاليد الأمور فى المدينة.

٣ – خيبر: مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على بعد تسعين ميلا تقريباً من المدينة فى جهة الشمال (الحميرى، الروض ٢٢٨، ياقوت، معجم ٢ / ٤٠٩)

فأتاه الوحى فى الحال، وعرف ما كانوا تآمروا، فقام فى الوقت من موضعه ذلك، وعاد إلى المدينة، ولم يعرف أحد من أصحابه السبب فى ذلك إلى أن عرفهم – صلى الله عليه – ذلك. فكان ذلك أمرا واضحا فى وقوفه على سرهم من غير خبر أتاه من جهة أحد من الناس، ولا يجوز أن يكون إلا من جهة الوحى.

والثانية: ما أخبر من سر المنافقين ومراسلتهم، فإنهم كانوا مجتهدين فى إخفاء ذلك. والثالثة: خبره عز وجل عنهم أنهم كاذبون، وأنهم لا يوفون لهم بما وعدوهم، فجرى الأمر على ذلك.

ومن ذلك قوله عز وجل بعد هذه القصة: ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ﴾[1] فجرى الأمر على ما أخبر عز وجل. فإن من قاتل منهم لم يقاتل إلا من "وراء جدر" ولم يبرزوا للنبى – صلى الله عليه – كما برز المشركون يوم بدر، ويوم أُحد وحنين، وهذا مما لا يجوز أن يطلع على حقيقته إلا الله عز وجل العالم بالمغيبات.

ومن ذلك قوله عز وجل فى اليهود: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ﴾[2] وقد علمنا من أحوالهم لأنهم فى جميع المواضع مقهورون مستذلون لا يمكنهم الثبات إلا مع الجزية والصغار وأحوالهم خلاف أحوال النصارى، فإن للنصارى دار ومملكة مثل الروم وما حوله على ما أخبر الله تعالى فى القلة والذلة.

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾[3] إلى آخر السورة، وذلك أخبار عن موته على الكفر، وجرى مخبره على ما أخبر به عز وجل، وهو مما لا يعلمه إلا علام الغيوب.

---

١ - الحشر: ١٤

٢ - الأعراف: ١٦٧

٣ - المسد: ١

ولهذه الآيات فى القرآن نظائر، وفيما ذكرنا كفاية وبلاغ لمن نصح نفسه، وانصف عقله، واتبع رشده.

فإن قيل: ولم ادعيتم أن الإخبار عن الغيوب يتضمن الإعجاز الذى إذا أتى به إنسان وادعى النبوة ثبتت نبوته ؟ وما أنكرتم أن يصح ذلك من المنجم الذى يخبر عن الشئ فيتفق أن يكون مخبره على ما أخبر به ؟

قيل له: لأن الخبر عن الغيب على وجه يكون صدقا على جهة الاستمرار لا يصح إلا من العالم به ؛ لأن ذلك لو صح من غير العالم، لم يكن الاستدلال بالفعل المحكم المتقن، على أن فاعله عالم، لأن من جوز ذلك يلزمه أن تكون الأفعال الكثيرة المنتظمة المتسقة تقع من المبخت الذى ليس بعالم به؛ لأن الخبر الصدق فى حكم الفعل المتقن فى احتياجه إلى أن يكون الفاعل له عالما، وهذه الجمل هى من علوم البداية التى لا تعزب عن كامل العقل، بل عن المراهق، وإن لم يبلغ كمال العقل.

فإن قيل: كيف ادعيتم أن ذلك من البدائة وأنتم تجدون كثيرا من العقلاء، يعتقدون فى الكهان والمنجمين، أنهم يجوز أن يخبروا عن الغيوب ؟

قيل لهم: أنهم لا يجوزون ذلك إلا إذا اعتقدوا أنهم عالمون بذلك، وليس ذلك خلاف ما ادعيناه من أن العلم بأن الإخبار عن الغيب لا يصح إلا من العالم.

ومن جملة البدائة أن أولئك أخطأوا حين اعتقدوا أن هؤلاء يعلمون الغيب، ولم يعتقدوا أنهم أخبروا من غير أن علموا.

فإن قيل: فإنا نجد من يعتقد فى كثير من المجانين أنهم يخبرون عن الغيب.

قيل له: هؤلاء يعتقدون أن الجن هم الذين ينطقون على ألسنتهم، وأن الجن يعلمون ذلك، فليس فى العقلاء من يضيف الأخبار عن الغيب إلا إلى العالم به، على بعض الوجوه.

وقد رأيت من سخافة الفلاسفة من يذهب إلى أن الإنسان إذا احتمل ربما أخبر عن الغيب، ومن يقول ذلك يذهب إلى أن النفس عالمة، فإذا احتمل خلصت

النفس، وجرى مجرى النائم الذى يرى ما يكون مما لم يكن بعد فى نومه، وهذا وان كان هذيانا لا يؤبه له، وكان ما يراه النائم على خلاف ما ذهبوا إليه، فانا ذكرناه لنبين أنه لا أحد من العقلاء يعتقد أن المخبر عن الغيب إذا كثر إخباره واستمرت على وجه يكون صدقا، يجوز أن يكون غير عالم، فإذا ثبتت هذه الجملة نقول: إن الانسان قد ثبت أنه عالم بعلم يتجدد له، والعلم لا يخلو من أن يكون ضروريا أو مكتسبا.

وقد علمنا أنه لا طريق يمكن للإنسان أن يكتسب به العلم بالغيوب ؛ لأن العلوم تكتسب بالنظر فى الأدلة، ولا أدلة على الغيوب، فلم يبق إلا أن من علم الغيوب يعلمه بعلم يضطره الله إليه، أو بخبر يأنيه من قبله عز وجل. وأيهما كان معجزا، لأنه متعذر على جميع الخلق الإتيان به إلا من خصه الله عز وجل به، كفلق البحر، وقلب العصا حية، وإحياء الموتى، وإبراء الأكمه، والأبرص.

فإن قيل: ما أنكرتم على من قال لكم: أن النبى - صلى الله عليه - علم تلك الغيوب من طريق التنجيم كما يعرفها حذاق المنجمين، وإذا صار ذلك لم يجب كونه معجزا على ما ادعيتموه.

قيل له: هذا يسقط من وجهين، أحدهما: أن المنجم لا يمكنه أن يخبر عن تفاصيل الأمور، ولا يحصل له العلم بذلك، وإنما يحصل له غالب الظن، لذلك يصيب فى شئ، ويخطئ فى غيره، وذلك من أحوال المنجمين معلوم.

يبين ذلك: أنهم يدعون أن فى جملة الكواكب الثابتة وهى التى تسمى بيابيات: كواكب كثيرة لا يعرفها أحد من الناس، وفيها السعود والنحوس، وأن حصول ما يحصل منها فى الطالع يغير الأحكام من غير أن يشعر بها المنجم، فيعتذرون الخطأ الذى يتفق لهم بذلك، وربما شبوه إلى خطأ أصحاب الرصد وربما ينسبون بعض الزيجات إلى أن فيها خطأ كثيرا، وكل ذلك لأن الصواب لا يستمر لهم، لأنهم لا يمكنهم أن يحكموا تفاصيل الأمور، وليس كذلك إخبار الله عز وجل فى القرآن عن الغيوب، فوجب أن يكون صدر عن علام الغيوب، الذى لا تخفى عليه خافية تبارك وتعالى.

والوجه الثانى: أن النبى – صلى الله عليه وآله – لو كان بلغ فى علوم النجوم المبلغ الذى كانت له هذه الأمارات من أجلها مع استحالة ذلك لوجب أن يظهر اشتغاله بها، وصرف العناية إليها، وأخذها عن أهلها، ولم يكن للعرب اختصاص بهذا الجنس من العلم، ولم يعرف أحد منهم به، ولم يكن يجوز أن يخفى عليهم.

ومن المعلوم: أن النبى – صلى الله عليه وآله – كان مولده ومنشؤه فى أقوام لم يتعاطوا هذا العلم، ومسافرته إلى الشام قبل البعثة كانت مع قومه، وكانت أياما قليلة، فبان بما بيناه: أنه لم يكن من أهل هذه الصنعة على المتعاطى لهذه الصنعة إذا بلغ مبلغ المتوسطين منها، فلا بد له من مدارسة أهله، والنظر فى كتبهم، بل لا بد له من آلات يعرف بها الطوالع التى يبنى عليها الأحكام، فكيف من بلغ الغاية، وإذ قد علمنا أنه – صلى الله عليه – لم يتعاط شيئا من ذلك، ولم يشتغل به، ولم يعرف شيئا منه، فقد بطل قول من قال: أن ما آتاه عليه السلام: آتاه من طريق النجوم.

وأيضاً: بمثل ما عرفنا أن الفرزدق وجريرا لم يكونا فقيهين، ولا متكلمين، وأن أبا حنيفة وأبا يوسف ومحمدا لم يكونوا شعراء، وأن سيبويه لم يكن متكلما، وأن أبا الهذيل لم يكن متطببا وأن الشافعى لم يكن متفلسفا، نعلم أن النبى – صلى الله عليه وآله – لم يكن منجما.

فإن قيل: ما أنكرتم أن يكون النبى – صلى الله عليه – كان يرى ذلك فى المنام، وكان قد عرف من نفسه أنه صحيح الرؤيا، فكان يخبر بما يرى تعويلا على ما عرف من نفسه.

قيل له: أن المعتاد من أمر الرؤيا، وصحتها معلوم أنه إلى أى حد يكون، وان كان صحيح الرؤيا قد تعرض له أضغاث الأحلام، والتعبير أيضا قد يقع فيه الخطأ كما يقع الصواب، ولا يستمر الأمر فيه هذا الاستمرار، وهو يوجب غالب الظن دون العلم المقطوع به، فإذا كان الله عز وجل خص نبينا – صلى الله عليه وآله – من الرؤيا بما أبانه من سائر الخلق، وبما هو ناقض للعادة فهو أيضا معجز دال على صحة نبوته.

فإن سألوا عن الفرق بينه – صلى الله عليه وآله – وبين الكاهن، والذى ينظر فى الكف.

فالجواب عنه: أن الكهان لا يمكنهم الإخبار عن تفاصيل الأمور على الاستمرار على وجه يكون صدقا، وهذا معروف من أحوالهم، لأنهم يقولون بأمور تعرض لهم، وبأمارات تظهر لهم، وإن أصاب الواحد منهم ففى شئ على سبيل الاتفاق، ويخطئون فى أشياء يظهر فيها كذبهم. وكذلك من ينظر فى الكف. أنما يخبر عن جمل الأحوال، ولهم كلام فى ذكر الأمارات الدالة على الأمور. والأوراق المصنفة لهم فى ذلك يذكرون حال العظم، وما يظهر فيه من النقط والتخطيط، ومواضع ذلك من العظم الذى هو الكف وليس يمكنهم الخبر عن تفاصيل الأمور، وأكثر ما يحكى من ذلك حكايات يغلب على الظن أنها كذب، وإن صح شئ من ذلك فعلى سبيل الاتفاق على أنه يجوز أن تكون الأمارات مما يظهرها الله عز وجل على مجرى العادة لكل ناظر، هذا إن صح ما يدعى من ذلك. وليس الإخبار عن الغيوب التى يتضمنها القرآن مشابها لشئ من ذلك، فبان وصح أنه وارد من عند علام الغيوب.

فإن قيل: ما أنكرتم على من قال لكم: يجوز أن يكون النبى – صلى الله عليه وآله – ظفر ببعض أحوال الأنبياء المتقدمين – صلى الله عليهم – عن تلك الغيوب، فادعاه لنفسه.

قيل له: لا يخلو وقوع ما سألتم عنه إليه – صلى الله عليه –أن كان على ما ذكرتم – ومعاذ الله من ذلك – أن يكون على طريق التواتر أو على طريق الآحاد، ولا يجوز أن يكون على سبيل التواتر، لأن ذلك يوجب كون تلك الأخبار ظاهرة فى زمانين بين أهل الكتاب، والمعلوم خلاف ذلك، ولا يجوز أن يكون وقوعه على طريق الآحاد، لأن ذلك مما لا تسكن النفس إليه، ولا يجوز أن يعتمده العاقل فى بناء الأمر عليه – على ما بيناه فى نظائره فيما تقدم من كلامنا فى هذا الكتاب.

فإن قيل: ما أنكرتم أن يكون النبى – صلى الله عليه وآله – سمع تلك الأخبار ممن شاهده ورآه، واتفق صدقه بما شاهده من معجزاته فأظهرها، وادعى أنه عرفها بالوحى.

قيل له: لو كان ذلك كذلك لوجب على الله عز وجل المنع منه، بأن يحول بينه وبين سماعها، وبينه وبين إظهارها، أو بأن يظهر تلك الأخبار لغيره على وجه لا يمكن التمويه، لأن ذلك لو كان على ما قلتم لكان شبهة لا يمكن حلها، وكل شبهة لا يمكن حلها يجب على الله عز وجل المنع منها، على أن هذا السؤال لا بد من أن يتضمن الإقرار بالنبوات والمعجزات. ويمكن أن يسأل فى كل معجز بم يجرى هذا المجرى؟ بأن يقال: يجوز أن يكون عيسى – صلى الله عليه – ظفر ببعض الخواص التى يحيى بها الموتى، ويبرئ الأكمة والأبرص، وأن يكون موسى – صلى الله عليه – ظفر ببعض منها يقلب بها العصا حية، ويفلق البحر، وليس الجواب عن ذلك إلا ما قلناه من أن ذلك – لو كان – شبهة لا يمكن حلها، ويجب على القديم تعالى المنع منها، فكذلك جواب هذا السؤال، إذا سألنا عنه، وهذا الكلام أيضا مما تقدم بيانه فى كتابنا هذا.